حرية في زمن الكورونا

اسم الكتاب: حرية في زمن الكورونا

التأليف: سندس الشاوي

نوع العمل: رواية

مراجعة لغوية: سواح للخدمات عبر الإنترنت

إخراج فني: عمرو سالم سواح

رقم الإيداع: 2020/ 15734

الترقيم الدولي: 978-977-835-205-4

الناشر: دار زحمة كتاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

Facebook دار زحمة كتاب للنشر

Email za7ma-kotab@hotmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار زحمة كتاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

رواية

حرية في زمن الكورونا

الكاتبة

سندس الشاوي

إهداء

إلى الشهداء الأبرار جميعهم الذين سُفِكَت دماؤهم الشريفة على أرض الوطن الغالي من أجل الحرية، الذين لم يوافقوا دائمًا على ما نقوله، بل يقفون مدافعين عن حقنا حتى الموت في أن نقول ما نريده.

إلى أولئك الذين كانوا يظنون أنّ الحزن صديق، ولم يكونوا يومًا يتصورون أن الحزن وطنٌ نسكنه ونتكلم لغته ونحمل جنسيته.

إلى كل الذين يؤمنون وما زالوا بأن النضال هو الحلُّ الوحيدُ لأولئك الناس الذين يقاتلون لتحرير أنفسهم.

إلى ذلك الثائر أقول: «كن قويًّا»، وإذا لم تملك القوة فتظاهر بذلك، ولا تَقِس الوفاء بما هو أمام عينك، بل بما يدور وراء ظهرك. فنحن لا نريد وطنًا مُلطخًا بالدماء، وإنما نريد وطنًا رافعًا رأسه في وجه الأعداء.

أهدي هذا الكتاب إلى كل من وقف حاملًا راية الحرية، لا يهاب الموت في ساحات الوغى وساحات الشرف، وإلى كل شريف على أرض الوطن وخارجه.

في ذلك اليوم عندما كانت «ثنوة» في الطريق راجعة من مدرستها التي لم تكن تبتعد كثيرًا عن بيت أهلها المتواضع، وعلى الرغم من أنه كان منزلًا ضيقًا فقد كانت تشعر فيه مع أهلها بالسعادة، شأنهم شأن معظم الأسر العراقية التي هاجرت قديمًا من بعض المحافظات إلى العاصمة بغداد من أجل البحث عن فرصة حياة أفضل.

وكان أبوها يذهب إلى عمله في كل صباح، وكانت أمها ربة منزل، ولم يكن دخل أبيها يكفيهم حتى آخر الشهر، وحتى منزلهم كان أبوها يدفع إيجاره في نهاية كل شهر.

وكان مما أنعم الله به على «ثنوة» أنها كانت تدرس في مدرسة مجانية، ترتدي زيَّها الرسمي، وتذهب إليها لتجلس مع صديقاتها في الصف الخامس الابتدائي.

وكانت صديقتها بشرى هي الأقرب إلى قلبها، ربما لأنها من أسرة فقيرة مثلها وكانت تعاني من مرض السكريّ، ولأنها كانت من الديانة المسيحية فقد كانت ثنوة تناديها مريم!

وكانت تستنكر عليها مناداتها بغير اسمها وتقول لها: لست مريم؛ أنا بشرى.

فتردُّ عليها: لأنك تشبهين مريم العذراء.

ثم تضحكان معًا وينتهي الأمر.

وكانت بشرى بسبب السكري الذي ينهش جسدها يُغشى عليها وتسقط أحيانًا في الأرض، بسبب فقر ذويها وعدم قدرتهم على شراء علاجها.

ولهذا كانت ثنوة تبادر بجمع بعض المال من مصروفها المدرسي لتتداركها قبل أن تموت، فهي صديقتها العزيزة التي لم تكن تستغني عنها.

كان الفصلُ الدراسي الذي تدرس فيه ثنوة متواضعًا جدًّا، يحتوي على بعض الطاولات والكراسي المهترئة، ولوحة معلقة قديمة قد تحوَّل لونها من السواد إلى البياض من كثرة استخدام الطباشير عليها.

حتى إن بلاط دورات المياه في المدرسة تغيَّر لونه بسبب أنه قديم جدًّا، ولذلك كانت ثنوة تعاني عندما تريد قضاء حاجتها، مما أصابها ببعض الآلام في أسفل البطن والتهاب في المسالك البولية، وعالجتها أمها بعصير البقدونس.

ولم تكن أمها توقظها للمدرسة عكس كثير من طلاب وطالبات المرحلة الابتدائية، ومع أنها لم يكن لديها منبه يوقظها فإنها على الرغم من ذلك كله كانت تستيقظ وتذهب إلى المدرسة في كل صباح.

وكان في منزلها هاتف قديم، ولكن أهلها كانوا يخشون الفواتير العالية، ولذلك كانت أمها تنبهها دائمًا بقلة استخدامه، وكانت تذكرها بتلك المدة التي لم يستطع فيها أبوها سداد الفواتير، مما جعل الدولة تقطع عنهم الخدمة لثلاثة شهور قبل أن تعود لاحقًا بعد السداد.

كانت لديها مُدرِّسة للغة العربية تحبها كثيرًا لتميُّزها في إلقاء الشعر والخطابة، لذلك كان المسؤولون في المدرسة غالبًا يختارونها

في يوم الخميس لتقديم النشاطات المدرسية.

ولفقر أهلها لم تكن توجد سيارة تقلها نحو المدرسة، فكانت تذهب إليها ومنها راجلة.

وفي أحد أيام الربيع وفي أثناء عودتها من المدرسة، صادفت شابًّا يقف عند باب دار أهله مرتديًا الكوفية والدشداشة، وبالصدفة تعثرت قليلًا أمامه وسقطت حقيبتها وتبعثرت كتبها على الأرض، ليهرع مسرعًا لمساعدتها قائلًا وعلى وجهه ابتسامة هادئة:

- اسم الله عليج.

ارتبكت حينها قليلًا وظلَّت صامتة تنظر إليه، ليتابع قائلًا:

- هل أنتِ بنت جارنا؟

كانت حينها في عمق حيرتها لأن أمها كانت توصيها دائمًا ألا تتحدث مع أي شاب في الطريق، وكان قانونهم المنزليُّ يمنع ذلك ويضعه في قائمة المحاذير الخطيرة، وعلى الرغم من ذلك كله فقد أجابته بخجل:

- نعم، بيتنا هو المنزل الثالث بجواركم.

فعلَّق قائلًا:

- ولكنني لم أرَكم من قبل!

فنهضت ولملمت حقيبتها مسرعة ومشت كأن شيئًا لم يكن، ومن شدة انهماكها في التفكير في المشهد، وجدت نفسها أمام باب منزلها، ذلك الباب القديم الذي ولت صبغته من أثر السنين.

كان منزلهم صغيرًا جدًّا، يحتوي على غرفة معيشة صغيرة لا تتجاوز اثْنَيْ عَشَرَ مترًا، فيها أثاث قديم مهترئ قد اشتراه أبوها عند زواجه من أمها من (سوق الهرج).

وكانت هي وإخوتها يسكنون وينامون في غرفة واحدة مشتركة بينهم، ولكن كانت الأسِرَّة منفصلة، ولذلك كانت ثنوة تشعر بالحرج عند تغيير ملابسها.

وعلى الرغم من صعوبة العيش فإنهم كانوا سعداء جدًّا ومتعاونين حقًّا، إذ كان أخوها يجلب لها من مصروفه المدرسي القليلِ بعضَ الأشياء مثل: (علك بوبي، جبس باز، وبيبسي في قنينة زجاج صنع في العراق) وكانوا يسمونها في العراق (النمنمات).

وكانت أمها سيدة نشيطة، إذ كانت لديها ماكِينة قديمة لخياطة الملابس، ومن نشاطها كانت تخيط لهم الملابس جميعها، حتى جعلتهم ليسوا بحاجة إلى شراء الملابس الجاهزة في كل وقت بما في ذلك وقت الأعياد.

كانت ثنوة تجمع من مصروفها المدرسي كي تشتري هدية عيد ميلاد الأم لأمها، التي كانت تحضنها وتضمها إلى قلبها الطيب، وكما قال شكسبير: «لا توجد وسادة أنعم من حضن أمي».

ومجددًا عند ذهابها إلى المدرسة في اليوم التالي، كان ابن جيرانهم واقفًا عند باب دار أهله، كانت ثنوة تمشي ولا تنظر إليه، ولكنها عندما اقتربت من مكان وقوفه، قال لها وبصوتٍ غير مرتفع:

- اسمي السراي.

لم تتوقف، واصلت طريقها ولكن حاصرتها الأسئلة عن سبب ذكره اسمه، وكان صوته يتردد في مسامعها إلى درجةٍ أفقدتها التركيز مع شرح المدرسات، بل حتى صديقتها بشرى انتبهت لها ولاحظت شرودها، فردت عليها ثنوة بأنها طبيعية وبأن الأمر لا يستحق القلق.

استمر صوت الشاب يتردد في مسامعها حتى في أثناء عودتها من المدرسة إلى المنزل، وحتى منظره سكن في ذهنها ووجدانها مما جعلها تعيش يومًا غريبًا لم تَشْتَهِ فيه الطعام، وسقط قدح الماء من يديها! لتنتبه أمها التي احتوت الأمر بحنانها الكبير، وقالت لها بلطف:

- إن الأمر لا يستحق ذلك كله، والمهم ألا تؤذي بقايا الزجاج من هم في المنزل.

وفي أثناء جمع ثنوة للزجاج جرحت إحدى القطع يدَها، لتضمده لها أمها، وكانت حائرة كيف ستكتب دروسها في اليوم التالي، إلا أنها قالت في نفسها: «صديقتي بشرى ستقوم بذلك».

وفي صباح اليوم التالي نهضت من نومها متأخرة، ثم أسرعت وغيرت ملابسها وحملت حقيبتها، ولم تتناول طعام الإفطار، وذهبت مهرولة إلى المدرسة التي وصلت إليها متأخرة، وعند الباب سألتها المعلمة عن أسباب التأخير وعن إصابة يديها، فبررت لها ذلك.

وعندما وصلت إلى الفصل نظرت إليها بشرى باستغراب:

- ماذا بك؟

فقالت لها:
- جرح بسيط، وأنت يا بشرى ستكتبين لي.
فردت عليها بشرى بالقبول.

وفي نهاية اليوم الدراسي، خرجت مع صديقتها بشرى من الصف كآخر اثنتين تغادران المدرسة، وعند بابها ألقتا السلام على حارسها، ثم ترافقتا معًا لأن بشرى كانت تسكن في الشارع الخلفي لمنزل ثنوة، فكانتا تمشيان وتتحدثان وتضحكان حتى نقطة الافتراق فتودع كل واحدة الأخرى، ثم تمضي إلى منزلها.

وعندما اقتربت ثنوة من منزل الشاب «السراي» التفتت بغير إرادتها، وإذا به يقف في المكان نفسه عند باب منزله، كأنه ينتظرها، وقال لها:
- لا تنْسَي، أنا فلان وسوف أحضر أمي إلى منزلكم، ولكن متى؟
مكررًا اسمه:
- أنا «سلمان مجيد فارس السراي»، لا تنسي اسمي.

ابتسمت ثنوة دون أن تركز في ملامحه، وهرعت راكضة نحو منزلها، كأنها ستطير من الفرح، لقد انتابتها مشاعرُ مختلطة لم تجد لها تفسيرًا، كانت مبتهجة كأن أمها ولدتها في تلك اللحظة، وضعت يديها على قلبها الذي شعرت بأن دقاته قد تحولت إلى طبول من الفرح والأمل.

وفي خضم هذه المشاعر الجياشة، دخلتْ إلى منزلها مسرعة فوجدت والدها جالسًا في وقتٍ ليس من عادته الوجود فيه، فسلمت عليه وقبلت يده فوضع يده على رأسها بلطفٍ أبويٍّ جميل.

ثم دخلت إلى المطبخ وقبلت رأس والدتها التي قالت لها:

- أراكِ سعيدة اليوم.

فردَّت عليها بأن سبب فرحتها حصولها على درجات ممتازة في مادة الإنكليزية التي طالما عانت فيها كثيرًا، فوعدتها أمها بهدية تليق بهذا النجاح، وكانت هدية فورية، إذ ذهبت وجاءت بعلبة مغلقة وفتحتها، وكانت المفاجأة أنها تحتوي على خاتمٍ جميلٍ ثم قالت لها:

- هو هبة لك.

وبينت أنها قد ادخرت بعض المال منذ زمن، واشترت الخاتم الذي كانت تنوي ادخاره لها حتى موعد زواجها.

توارت خجلا فبادرتها أمها بسؤال:

- أقرأ في وجهك كلامًا يستحق أن يقال.

فردت عليها ثنوة:

- نعم صحيح، ولكن متى سنتحدث؟

فقالت الأم:

- فورًا، الآن!

فارتبكت حينها قليلًا ثم قالت لها:

- هل تعرفين بيت أبي سلمان الجار رقم ثلاثة لنا؟

فقالت لها:

- ولماذا يا بنيتي؟

فأجابتها:

- لأن لديهم ابنًا يريد أن يتقدم لخطبتي.

استغربت أمها وقالت:

- وكيف عرفتِ ذلك؟

ردت عليها:

- ابنهم قال هذا.

حينها تغيرت ألوان وجه أمها وهي تتساءل عن كيفية ذلك، ثم قاطعتها -وهي تبرر عدم معرفتها بالشاب، وأنها رأته صدفة- وقالت لها بأنها ستتحدث لاحقًا معها في الموضوع بعد أن تتناقش فيه مع زوجها.

وعلى الرغم من أن ثنوة شعرت حينها بالخوف، فقد كانت تعي أن من حقها الطبيعي أن تختار الشخص المناسب لمستقبلها، وحينها هدَّأت أمها من خوفها، ووضعت طعام الغداء الذي كان عبارة عن وجبة (الدولمة)، واجتمعت الأسرة كلها على تلك الوجبة في يوم الخميس بكل حب ووئام.

اقترح أبوها أن يذهبوا إلى زيارة الإمام علي بن أبي طالب في النجف الأشرف، ثم زيارة ولديه الحسين والعباس في كربلاء، وحينها التفتت إليه الأم طالبة منه الاستشارة في موضوع الخطوبة.

وحينما همَّ بالحديث معها لم تكمل ثنوة تناول طعام الغداء وغادرت مسرعة إلى غرفتها خوفًا من الإحراج، وجلست تسترق السمع لتعرف رأي أبيها في الموضوع.

كان أبوها يصغي بتركيز في حين كانت أمها حائرة من أين تبدأ!

كان أبوها إنسانًا طيبًا وحنونًا، متوسط العمر، يرتدي الكوفية ذات اللون الأسود والأبيض، والعقال السميك، وأصله طيب، تمتد

جذور نسبه من جنوب العراق.

قطع حينها أبوها حيرة أمها وترددها في الحديث طالبًا منها البدء في الموضوع، فقالت له:

- هل تعرف بيت حجي مجيد وابنهم سلمان؟

فأجاب:

- نعم، ونِعم الجار، ولكن ما بهم؟

فردت عليه:

- يريدون خطبة البنت «ثنوة» لابنهم «سلمان»، وأرسلوا خبرًا بذلك، ويريدون تحديد موعد يأتون فيه للخطوبة.

صمت حينها أبوها للحظة ثم قال:

- دعيني أسأل أكثر عنهم من بعض الأشخاص الذين يعرفونهم أكثر.

باركت أمها رأيه قائلة:

- هذه مهمتك، ولأنها هي ابنتنا الوحيدة يجب أن نتأكد من أخلاق هذا الشاب.

رد عليها بأنه سيبلغها بموعد الخطوبة من عدمه فور أن ينتهي من الاستفسار عن سلمان وعائلته.

كانت ثنوة تستمع إلى حوارهما بتلهف، وكانت دقات قلبها تتابع بسرعةٍ عاليةٍ، فلم تدرك أنها أحبَّت ذلك الشاب من نظرة! واقتنعت بأن نصيبها لن يتجاوز ابن جيرانها الذي تعلقت به.

شرع أبوها في مرحلة السؤال عن سلمان وعائلته، إذ كان يسأل جيرانه ومعارفه وحتى أصدقاءه، وكلهم أجمعوا على أنه شاب طيب،

ملتزم، يحترم الآخرين، و«كافي خيره شره» كما يقال باللهجة الدارجة العراقية. ولقد حفزت تلك النتائج الإيجابية أباها لمصاهرة سلمان، الذي كان يكسب الحلال من سيارته الأجرة.

وكان أبوها -على الرغم من وضعه المادي الصعب- يقول لأبنائه:

- الفلس الحلال أفضل من مليون دينار من السحت الحرام.

وبعد أن حدد أبوها موعد الزيارة، كانت ثنوة في نهاية المرحلة الثانوية عندما جاءت أم سلمان وأخته لزيارتهم.

ولقد رحبت أمها كثيرًا بهما، وبعد حديث أخوي ممتع قالت أم سلمان:

- نحن نطلب يد ابنتكم ثنوة لابني سلمان.

ابتسمت أمها وقالت:

- لنا الشرف، فأنتم جيران السرور، ولم نسمع عنكم إلا الخير.

وبينت لها موافقتهم بشرط أخذ رأي ثنوة الأخير والمعتمد في ذلك.

ردت عليها أم سلمان وقالت:

- لكم الحرية في ذلك، وهذا ما يأمر به الدين.

كان حينها سلمان عند الباب ينتظر الأخبار على نار، وحينما جاءت أمه إليه سألها بلهفة:

- ها يمه وافقوا لو لا؟

فردت أمه:

- لحضة يا بني خلينا نجر نفس.

فقال لها:

- بشري يا أمي، أشوف بوجهج ريحة مذمة.

فقالت له:

- لا يا وليدي، الأهل ما عدهم رفض، لكنهم طلبوا بعض الوقت يأخذون فيه رأي الفتاة.

كان سلمان واقفًا، فجلس وأخذ نفسًا عميقًا وقال:

- إي هسا ارتَحِت.

علقت أخته قائلة:

- راح توافق عيني وين تلكا مثل ها الْشبشوب.

ضحك حينها سلمان فرحًا وبهجة، نزع كوفيته من رأسه وأخذ يرقص ويغني بعض الأغاني العراقية:

«جبناها وجت ويانا وبثوب العرس فرحانة»

ثم قبَّل رأس أمه ودعا لها برؤية أحفادها، وقال:

- بهذه المناسبة اليوم غداؤكم عليا، حاجيب لكم كباب من قدوري أبو الكباب، شتقولون؟

ردت عليه أمه وأبوه وأخته:

- ضم فليساتك يفيدنك، فأنت مقبل على زواج، والزواج يريد مصاريف، وعليك الادخار لكي نعمل لك حفلًا يليق بك.

اتصل حينها سلمان بصديقه حسن مقدمًا له دعوة على الشاي، فقال له حسن:

- أشعر بأن لديك كلامًا تريد أن تقوله لي.

فقال له سلمان: نعم.. عندما نلتقي.

وفي عصر اليوم التالي، التقيا في منزل سلمان بالأحضان، وجلسا في حديقة المنزل الصغيرة، وطلب من أخته سعاد إعداد الشاي لهما، ولم يكن حسن يعلم أن سلمان له أخت شابة، على الرغم من أنه كثير التردد عليهم في المنزل.

كان حسن أقرب إنسان إلى قلب سلمان، فهو صديق عمره منذ الطفولة، ويتذكر سلمان له موقفًا مشرِّفًا، وذلك عندما نزع سُترته في شتاء قارس وألبسها لسلمان في مرحلة الطفولة، ولقد شكَّل هذا التصرف موقفًا نبيلًا لم ينسَه له.

كانت سعاد تسمع دائمًا حديث أخيها عن صديقه حسن، ولذلك أعجبت بسلوكه رغم أنها لم ترَه قط، فهم أسرة ملتزمة بعاداتها وتقاليدها وهي كانت فتاة خجول ومحترمة.

ولقد تحدث سلمان وحسن كثيرًا، وقضيا معًا لحظات ممتعة، قبل أن يطلب سلمان من حسن الوقوف معه، ومن شدة إصغاء حسن إلى حديث سلمان لم يسمعا سعاد حينما كررت عدة مرات:

- الشاي يا جماعة!

وحينها قال له حسن:

- أنا جاهز لمساعدتك، ومن يدك اليمين إلى يدك اليسار، أؤمرني.

فبيَّن له سلمان بأنه مُقدِم على مشروع زواج، وأنه يريد منه أنه يحمله في الزفة مع زوجته إلى الإمام الكاظم لكي يتباركا به، ثم يذهب بهما إلى منتجع (الحبانية) لقضاء شهر العسل.

فرح حسن كثيرًا له، بارك له خطواته وبشَّره بالخير.

ليقدم سلمان الضيافة من عند أخته سعاد، والتي كانت تتضمن (قطع الكعك أو الكليجة العراقية التي عملتها بالتمر البرحي ولوز عين الجمل).

وفي أثناء تناولهما وجبة الضيافة، طلب سلمان أيضًا من حسن قرضًا حسنًا، وافق عليه حسن فورًا، فعلَّق سلمان قائلًا:

- ما تقصر وياي، دائمًا ما عندي غيرك سنايدي بالشدات، أخوي حزام ظهري.

شعر حينها حسن بالزهو والفخر، وواصلا الحديث مستذكرين ذكرياتهما الجميلة مع صديقهما أحمد طيب النفس والروح الذي كان يحب المزاح كثيرًا، إذ كانوا يلتقون في كل يوم خميس في ساحل أبو نواس، ويأكلون وجبة (السمك المسكوف) المشوي على الطريقة العراقية، كانوا يشترونه طازجًا من عند الصياد العم «أبو عباس» على ضفاف نهر دجلة ويشويه لهم.

ولكنهما كانا يتذكران هذه الذكريات بمرارة، لأن صديقهما أحمد استشهد في حرب العراق مع إيران في نهاية عام ١٩٨٨ قبل نهاية الحرب بثلاثة أشهر، إذ كان جنديًّا مكلفًا بنداء الوطن، ولم يتجاوز عمره ثمانية عشر ربيعًا عليه رحمة الله.

كان حينها سلمان قد ترك الدراسة، واتجه إلى كسب لقمة العيش مساعدة منه لأهله.

وبعد صمت لبرهة من الزمن، طلب سلمان من حسن إخباره بمشاريعه المستقبلية، فردَّ عليه حسن بأنه يريد جلب (إطارات) قديمة من السليمانية مستعملة ويبيعها في سوق بغداد، ثم اتفقا على الشراكة فيما بينهما.

وبعد مغادرة حسن ذهب سلمان إلى أمه فوجدها تجلس على الأريكة التي اعتادت الجلوس عليها، فجلس بجانبها وأخبرها عن نيته في مشاركة صديقه حسن، طالبًا رأيها، فباركت له ذلك وأخبرته بأن لديها بعض القطع الذهبية التي ورثتها عن أبيها، ستبيعها وتهدي له المال بمناسبة زواجه.

استلقى سلمان على فراشه ولكنه لم يستطع النوم، لأنه يفكر في حبيبته ثنوة، وكلما أغمض عينيه تلوح صورتها أمامه، مما اضطره إلى الذهاب إلى المطبخ لكي يشرب كأسًا من اللبن التي ساعدته أن ينام نومة عميقة.

وفي أثناء نومه، حلم بطيرٍ أبيضَ جميلٍ، وظهرت ثنوة أمامه ترتدي بدلتها البيضاء، وإذا بهذا الطير يتحول إلى طفلٍ ذكرٍ جميلٍ يشع نورًا، حتى إن المكان أصبح مُشعًّا بالنور، فقالت له ثنوة:

- هذا صفاء.

أخذه وقبَّله ثم أعطاه إليها، وأدار ظهره لهما ومشى بعيدًا.

كان حينها في أثناء الحلم قد نام نومًا عميقًا، حتى إن صوت شخيره سمعته أخته عندما نهضت في منتصف الليل إلى غايتها!

أفاق من نومه العميق وإذا به في حلم، فصلى صلاة الفجر، وعاد مجددًا إلى نومه، ثم نهض لكي يذهب إلى عمله، وتذكر الحلم الجميل.

نهضت سعاد إلى عملها فهي تعمل مدرسة في المرحلة الابتدائية، وقالت له: لقد كان صوت شخيرك عاليًا، ما السبب؟

فقال لها سلمان:

- أضغاث أحلام.

شرب قهوته التي اعتاد أن يشربها في كل صباح، وأخذ ثلاث حبات من التمر من شجرة النخل التي زرعها أبوه منذ زمن بعيد عندما كان صغيرًا، إذ تخزن أمه ذلك التمر بطريقتها الخاصة وبخبرتها الواسعة، كونها من أهل جنوب العراق الذين تمتاز منطقتهم بزراعة النخل، شأنهم شأن أكثر البيوت العراقية التي يوجد النخيل في أفنيتها الخضراء، وتزرع أصناف كثيرة من التمر في مدينة البصرة بصفة خاصة والعراق بصفة عامة، يعتمد على تصدير التمر كمصدر اقتصادي كبير.

وكانت أمه تستفيد من التمر في استخراج الدبس والخل، وتلك العائلات لا تشتري التمر طوال العام، لأنها تزرعه وتخزنه عندها.

ولقد اعتاد سلمان أن يتناول التمر مع القهوة بصورة سريعة، ثم يأخذ أخته سعاد معه إلى مدرستها، وكان من عادة سعاد أنها تأخذ

معها طعامها في علبة وتتناوله في المدرسة.

كان سلمان يمزج في عمله بين قيادة سيارة أجرة، وبين محله الصغير الذي كان يبيع فيه الأدوات الصحية، وكان سبب اتجاهه إلى التجارة يكمن في عدم حصوله على الشهادة الجامعية، وعدم توفيقه في الحصول على وظيفة.

وبعد ثلاثة أيام في يوم الإثنين اتصلت أم ثنوة، وأجابتها أخته سعاد التي رحبت بها كثيرًا، قبل أن تتحدث مع أم سلمان، وعند بدء الحديث دخل سلمان إلى المنزل ليسمع أمه تقول:

- مبارك لنا نحن الاثنان، ومتى نأتي لزيارتكم؟

لتقول لها:

- يوم الخميس القادم.

انتهت المكالمة، نظر سلمان إلى أمه ليجدها مبتسمة، وقد بشرته بردِّ أهل ثنوة الإيجابي وموافقتهم عليه، كاد حينها سلمان أن يطير من الفرح.

وفي عصر ذلك اليوم أخذ أمه وأخته لاختيار هدية العروسة من محل صائغ الذهب في سوق الكاظم، ولقد عرف صاحب المحل بخبرته أنهم قادمون لشراء هدية للعروسة، فبارك لهم وقال:

- شايفين الخير.

أكد سلمان لأمه بأنه لا يعرف ما تحبه النساء، طالبًا منها الاختيار، وقد اختارت له خاتمًا مكتوب عليه سلمان وثنوة وتاريخ الخطوبة، إضافة إلى سوار من ذهب مُطعَّم بالأحجار الكريمة،

ووضعت الهدية في عُلبة جميلة.

كان حينها سلمان يشعر بسعادة غامرة، وكان جسمه نحيلًا، وشعره أسود كثيف، وله شارب، ويمتلك نبرات صوت عالية.

وعندما عادوا إلى المنزل كان أبوه كعادته جالسًا على الأريكة يشاهد الأخبار في التلفاز، وقال لسلمان: لقد اعتاد الشعب هذه المأساة منذ الاحتلال الفارسي للعراق، فلا جديد!

وتابع قائلًا:

- العراق بلد الثورات ولا يصبر على الضيم، فالأجداد في ثورة العشرين قد أعطوا الاحتلال الإنكليزي درسًا لا ينساه.

فردَّ عليه سلمان:

- ولكنني الآن بصدد مشروع إتمام الزواج.

فقال له أبوه:

- لا عليك.

ثم فتح عُلبة فيها بعض المال، وقال له:

- قد بلغت أمك بأن لديَّ بعض المال كنت قد ادخرته لليوم الأسود، ولكن جاءنا الآن اليوم الأبيض.

ثم وهبه المال ليكمل به تجهيزات زواجه.

شكره سلمان كثيرًا وقبَّل يديه ورأسه قبل أن يقول له أبوه مبشرًا:

- شايف الخير وتستاهلها.

وعندما ذهب سلمان لكي يرتاح قليلًا، استلقى على سريره ليتذكر وجه خطيبته مبتسمًا، ثم جلس ليكتب تكاليف الزواج التقديرية في

دفتر، وقرر أن يعمل بدل الثماني ساعات المتواصلة اثنتي عشرة ساعة كي يغطي نفقات الزواج.

فركَت شمس الصباح عينيه، وصاح الديك الذي اشتراه هو وبعض الدجاجات لأمه ذات يوم، وأصبحت تعتني بهن، وتجني بيضهن في الوقت المناسب.

فنهض مسرعًا، وغيَّر بملابسه ملابسَ خاصة بالعمل، وركب سيارته المتواضعة، وذهب باحثًا عن الرزق كما يقول أهل العراق: «رايح على باب الله».

وفي طريقه لاحظ امرأة مسنة في نهاية السبعين من عمرها تلوح بيدها، وقف لها وصعدت في السيارة، لقد تركت السنون على وجهها آثارًا لم يمحُها الزمن، وبصوتها المرتجف قالت:

- أريد دائرة التقاعد يا بُني.

ثم تحدثت بتذمر، وبيَّنت أن مرتبها لا يكفي لشراء طبق بيض، فقال لها مستغربًا:

- لماذا؟

فنظرت إلى الأعلى، وقالت:

- ربما يساعنا الله ذات يوم على تحمُّل هذه الأعباء كلها.

وأوضحت أنها مدرسة متقاعدة، وزوجها عسكري متوفى، مؤكدة أن رواتب التقاعد لا تفي لحياة كريمة، حتى بيتها باعته لتغطي تكاليف نفقاتها رغم أنها وحدها، إذ لم يرزقها الله الذرية.

فعرض عليها سلمان خدماته، وقال لها:

- كلنا أبناؤك يا أمي.

ومنحها رقم هاتفه لتتصل عليه في أي وقت، وعلى الرغم من أنه أصرَّ على منحها المشوار مجانًا، فقد رمت المال على الكرسي الخلفي من السيارة، وذهبت بخطواتها البطيئة جدًّا.

كان يتأملها سلمان ليرى كيف ستصعد سلم تلك الدائرة القديم المُتعِب، إذ لم تكن الدوائر الحكومية والخاصة مزودة بطرق خاصة بكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة، إضافة إلى أنها كانت أبنية قديمة جدًّا.

وبعد أن غادر المكان بمسافةٍ قصيرةٍ، ركب معه رجل وامرأة قاصدَين الذهاب إلى مدرسة العقيدة للبنات، حاملين معهما بعض الأوراق، وتحدث الرجل عن واقع المدارس، وكيف بدأ التعليم يتغيَّر وأصبح يطغى التعليم الخصوصي من المنازل لزيادة الأرباح، خصوصًا المعلمين من الطائفة المسيحية، نظرًا إلى طموحهم في الهجرة إلى الغرب وأمريكا.

وبيَّن له أن هذا ما جعل عدد المدرسين والطلاب المسيحيين يتناقص كثيرًا بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية في نهاية عام ١٩٨٩، إذ أعطى الشعب من دمه ضحايا كثيرة دفاعًا عن الوطن في تلك الحرب.

حينها قالت المرأة التي ترافق زوجها -ولا تبدو شابة رغم صغر سنها- لسلمان بتذمر:

- توقف هنا.

وطلبوا منه تحديد السعر، وعندما لم يحدد سلمان أي سعر أخرج الرجل من جيبه عملة ورقية عليها صورة صدام حاكم العراق

آنذاك.

حينها قال سلمان في نفسه: «لقد أعطاني نصف ما أستحق، لكنني لن أبالي»، ووضعها في (دُرج) السيارة الذي يسميه أهل العراق (الجكمجة)، ثم مضى في طريقه باحثًا عن الأرزاق. وبعد بضع عشرات من الأمتار أوقفته امرأة في منتصف الأربعينيات، ومعها شابة جميلة حسنة المظهر ترتدي (البنطال) وطلبتا منه أن يذهب بهما إلى سوق (الشورجة) الكبير، وكان هذا السوق يجاور أيضًا سوق (العربي وسوق دانيال) وهم أسواق جملة يقصدها العراقيون عند المناسبات لشراء أغراضهم منها.

وبدأتا في الحديث فقالت الأم لابنتها:

- يوم الخميس ليلة الحنة، ويجب أن نشتري السبع بياضات، وشكر كلة والحنة.

فقاطعتها البنت:

- وعلينا أن لا ننسى ماء الورد والهيل التي سوف تغسل قدمي به خالتي، لأنها السعيدة والأكثر حظًّا.

وفي أثناء حديثهما تذكر سلمان خطيبته ثنوة، وتخيَّل كيف سيكون منظرها في يوم الحنة، وتخيَّل أصحابه وهم يذهبون به إلى حمام السوق، كما هي العادة البغدادية، والذي أصبح اليوم يسمى الحمام المغربي أو التركي. وتخيَّلهم وهم يضعون الحنة كخضاب على إحدى أصابعه، ويزفونه بالأهازيج مودعًا بذلك حياة العزوبية.

عندها قطعت الراكبة خيالاته بقولها:

- قف؛ وصلنا سوق (الشورجة).

لقد كان ذلك اليوم مُتعبًا جدًّا عليه إلى درجة أنه نسي تناول الغداء مكتفيًا بتفاحة وقهوة وقدح من الحليب. أو ربما تناساه لكي يجمع المال من أجل الزواج كما يقول في نفسه: «لعيون ثنوة كل شيء يهون».

فتح مذياع السيارة فسمع المذيع يقول إن هناك تصعيدًا كبيرًا ضد الكويت من الحكومة العراقية!

فقال في نفسه: «اللهم استر العراق من حرب أخرى لا يطيقها، فقد كسرت كاهلَ الشعب الحربُ الأولى مع إيران الطامعة في أرض العراق الثري، وخرج منها العراق سالمًا منتصرًا على أقوى قوى بالشرق الأوسط، على الرغم من تفاوت العدة والعدد فإن إرادة الشعوب تصنع المعجزات، والعراق وشعبه ليسوا على استعداد لمواجهة مشاكل جديدة مع الأشقاء العرب».

كان حينها صوت الشارع حذرًا، والسماء تنبئ بأن شيئًا سيئًا قابل للحدوث، ولكن لن يعلم الفقراء أن ما ينتظرهم أسوأ بكثير مما مضى!

كان سلمان شارد الذهن، إلى درجة أنه لم ينتبه أن الإشارة الحمراء قد أصبحت خضراء إلا بعد صراخ الناس، وأبواق السيارات من حوله، حتى إن أحدهم صاح عليه قائلًا:

- لا مكان للنوم عند الإشارة!

لكن سلمان لم يبالِ وضغط على مكبح البنزين، ومضى في طريقه بكل سلام حتى أوقفه رجل مسن يرتدي دشداشة وكوفية

بيضاء وسوداء، وقال بصوته المرتجف:

- أوصلني إلى اليرموك يا ولدي.

فردَّ عليه سلمان:

- هل تقصد منطقة اليرموك أم مستشفى اليرموك؟

فقال:

- منطقة اليرموك، لأن لي أختًا هناك أودُّ زيارتها قبل الأجل.

وأخبره أن منطقة اليرموك بناها الرئيس عبد الكريم قاسم، ووزعها على العسكريين، ولذلك هي منطقة قديمة جدًّا، وجلُّ من يسكنها كانوا من منسوبي الجيش العراقي.

وتابع المسن حديثه قائلًا إن أخته تزوجها زميله الجنرال المتقاعد من العسكر، وله معه ذكريات قديمة منها مشاركتهما معًا في حرب الجولان.

كان سلمان يصغي إليه بكل إمعان عندما توقفت السيارة عند إشارة مؤدية إلى أربعة شوارع، واستغل الطريق الأيمن، وفي نهايته قال له المسن:

- قد وصلنا.

وأعطاه حسابه.

وظل سلمان ينتظره خوفًا عليه، حتى وصل إلى باب المنزل وطرق الجرس حتى فتح له أحدهم الباب.

بعد ذلك واصل سلمان طريقه، وبالقرب من مستشفى اليرموك أوقفته امرأة تحمل وليدها المصاب بالحمى بين ذراعيها، وطلبت منه إيصالها إلى حي المنصور في شارع ١٤ رمضان، وهو حي غير بعيد

عن المستشفى، لأن كليهما في منطقة (الكرخ) في بغداد، إذ تسكن هناك.

وبعد عدة دقائق وصل إلى منزلها، الذي كان عبارة عن ملحق صغير لبيت كبير، وقالت له مرتبكة: نسيت بعض المال في المنزل!

شعر حينها سلمان بأنها لا تمتلك ما يكفي من المال، فقال لها:

- المشوار صدقة مني لوجه الله.

على الرغم من محاولتها ثنيه عن ذلك.

فتح مذياع السيارة مجددًا، فوجد التصعيد قائمًا فيما يخص خلافات العراق والكويت، أغلق المذياع وفتح المسجل على أغاني عبد الحليم حافظ ومنها أغنية «سَوَّاح»، التي كان يردد كلماتها وهو يتخيل وجه خطيبته ثنوة.

وبالصدفة ألقى نظرةً على مؤشر عداد البترول ليجده قد تناقص كثيرًا، فدخل إلى أول محطة في طريقه فوجدها مزدحمة، قبل أن يجد محطة أخرى بقرب شارع الربيع في حي الجامعة، وبعد أن تزود فيها من الوقود غادرها متجهًا إلى شارع الحرية حيث يسكن أهله.

وفي طريقه ركب معه شاب عشريني يرتدي البزة العسكرية يريد منطقة (العلاوي)، ليركب الحافلات المتجهة إلى المحافظات الأخرى، وحينها سأله سلمان عن المحافظة التي يريد الذهاب إليها، فقال له الشاب محمد:

- أنا من حي الإسكان في بغداد، ذاهب إلى واجبي العسكري بوحدات الجيش في البصرة في أم قصر.

استغل سلمان الوضع وسأله عن أحوال الجيش في حرب العراق والكويت، فقال له محمد:

- الأخبار نعرف فيها ما تعرفونه، وهو التصعيد بين العراق والكويت، ولا نعرف أين تتجه الحكومة العراقية التي تأتي بمفاجأة جديدة كل يوم.

فقال له سلمان:

- وماذا تتوقع؟

رد عليه:

- لا أعلم، ولكن ربما نجتاح الكويت.

ارتبك سلمان قليلًا، ثم قال:

- أليس هذا ضربًا من الجنون إذا دخلنا الكويت، ونحن للتو قد خرجنا من أكبر حرب مع إيران؟!

أجابه:

- يا أخي هذه سياسة، دعك من هذا فللحيطان آذان، وأنا غير مستعد أن أخسر حياتي.

وضحك حينها سلمان قائلًا:

- ولا أنا، لأن خطيبتي تنتظرني.

نزل محمد في منطقة (العلاوي)، وركب الحافلة المتجهة إلى المعسكرات في البصرة، في حين سار سلمان في طريقه، وهو يستعرض ظروف وقصص الأشخاص الذين ركبوا معه في سيارته جميعهم، فكل واحد منهم لديه مشاكله الخاصة.

فقال حينها في نفسه: «الحياة صعبة، وتحتاج إلى من يقوى على كسرها».

وصل إلى منزله، وعندما دلف إلى الدار سلَّم على أبويه وقبَّل أيديهما، وقال له أبوه:

- تأخرت اليوم، فليس هذا من عاداتك!

رد عليه قائلًا:

- أتفق معك، لقد أخذني العمل، إذ إنني مُقبل على حياة جديدة وأحتاج إلى كثيرًا من المال، خصوصًا مع غلاء الأسعار هذه الأيام.

وذهب سلمان إلى غرفته، استلقى على فراشه ووضع رأسه على الوسادة، وبعد لحظات دخل في نومٍ عميقٍ حتى إنه لم يغير ملابس العمل.

مرت أمه على غرفته فوجدته مستغرقًا في نومٍ عميقٍ، فدعت له بالتوفيق ومضت إلى شؤونها الخاصة.

عادت أخته سعاد من مدرستها، وشرعت في تحضير أسئلة امتحان طالباتها، وطلب منها أبوها أن تكتب لهم أسئلة سهلة وتنصفهم إن أرادت التوفيق من الله.

ردت سعاد عليه قائلة:

- لا ينشغل بالك يا أبي، فأنا أراعي ظروفهم، وغايتي أن يفهموا المنهج، وليست الغاية معاقبتهم بأسئلةٍ صعبة.

وكانت سعاد تُدرِّس مادة الرياضيات للطالبات اللاتي يسمينها (ست سعاد)، وكانت دائمًا تعمل لهن نشاطات ومسابقات تنافسية، وتعطيهن معادلات ذكية. كما أنها كانت تحفزهن ببعض

المكافآت في عيد الطالب بالهدايا المعنوية، وشهادات الشكر والأوسمة وميداليات التميُّز.

لقد كانت سعاد قدوةً لزملائها وزميلاتها في حقل التدريس، وكانت تتابع كل ما هو جديد في مجال عملها، غايتها الإبداع والتميُّز الدائم.

لقد كان عملها يشغل جلَّ وقتها، وعلى الرغم من هذا فقد كان لديها بعض النشاطات الخارجية، فهي تعشق الرسم، وغالبًا ترسم رسومات من تراث العراق، وتهتم بالفن الواسطي لأنها تعشق (سعاد الأغا) و(سناء الأغا) اللتين تميَّزتا في هذا الفن الأصيل.

كما أنها كانت دائمًا تقترح زيارات مدرسية ميدانية إلى متحف التاريخ العراقي والبغدادي، وهي رئيسة اللجنة الترفيهية بمدرستها.

ولقد زارت مع طالباتها متحف التاريخ الطبيعي، المتحف البغدادي وبانوراما القادسية، وكانت تهتم في زيارة هذه المتاحف بالتفاصيل الدقيقة، إذ تقف عند كل لوحة فنية من الآثار وتحكي قصتها لطالباتها.

لقد كانت رسالتها أكبر من التعليم والتنوير، كانت رسالة حب العراق العظيم، وكان شعارها دائمًا «لا جغرافية دون تاريخ».

وكانت هي من يقترح دائمًا على إدارة المدرسة تنظيم الرحلات الترفيهية التعليمية للطلبة، وتشرح للمسؤولين تأثيره الكبير على تعلق الطلاب بالعلم والوطن.

وكانت تحكي للطلاب والطالبات عن كيف كان أجدادهم السومريون، خصوصًا جدُّهم (حمرابي) مؤسس القانون، وتواصل

الحديث عن أثر بلاد الرافدين في اختراع العجلة وعلم الفلك، فهم أول من علَّم العالم الكتابة، كما أن لهم دورًا كبيرًا في الخوارزميات والعلوم الأخرى.

حتى عندما تمرُّ الحافلة المدرسية بالأسواق البغدادية القديمة والمساجد والخانات، كانت تحرص أن تشرح التفاصيل كلها للطالبات، مما جعلهن يعشقن مرافقتها في تلك الرحلات التي كسبت فيها سعاد محبة الجميع.

حتى إن مديرة مدرستها كانت متعاونة جدًّا وإيجابية وتثني على جهودها بصورة دائمة، حتى إنها منحتها درجة القدوة لأنها تستحقها بجدارة.

نهض سلمان في الساعة السادسة على صوت إمام المسجد، ومكث في مكانه متأملًا، تارة ينظر إلى ساعته، وتارة يُحدث نفسه!

ثم توضأ وصلى، وعندما خرج إلى صالة المنزل كانت أمه قد أعدَّت الشاي لأبيه وعملت بعض الفطائر، تناول معهما طعام الإفطار الذي أعجبه، وشكر أمه عليه، متمنيًا للجميع يومًا موفقًا.

وعندما وصل إلى سيارته فوجئ بأن أحد الإطارات قد نفد منه الهواء، ليُخرج آلة النفخ، وبعد أن امتلأ الإطار انطلق نحو عمله.

لقد كان سلمان بارًّا بأمه، وكان كل فلس يكسبه يضعه في يدها لكي تدخره له، واستمر على هذا حتى استطاع أن يدخر تكلفة الزواج، ومؤخر العروس وهو شرط عقد القِران. ولقد اتفق على أن يذهب في كل يوم خميس مع أخته إلى منزل خطيبته، ليلتقي بها وهي ترتدي أجمل ما لديها من ثياب.

كانت تحتار قبل مجيئه أي لباس تلبس، فتفتح باب خزانتها الصغير، وتنظر إلى الملابس ذات اللون الأزرق الفيروزي بكل درجاته.

وكان سلمان يثني على أناقتها، فهي في عينيه جميلة بأيِّ شيء ترتديه. لقد عشقها سلمان جسدًا وروحًا، ولم يعد يهتم بما ترتدي، لقد عشق عينيها السوداوين وروحها الجميلة وابتسامتها الخجول، باختصار.. عشق كل شيء فيها.

وكان كلما ذهب لزيارتها يصطحب معه حلويات (الشكرجي) المميَّزة، ومنها (البقلاوة) وحلويات (نعوش) لأنها تحوي على ورقة الحظ، ولذلك كان عندما يفتحها يقول لها:

- تُرى ماذا يخبئ لنا القدر؟

لترد عليه:

- لنرَ.

وعندما يفتح الورقة يقرأ: «سعادة وفرح دائمين».

كانت حينها امتحاناتها للفصل الأخير من الدراسة قد اقتربت، وكان سلمان قد قررَّ أن يتزوجا في نهاية العام الدراسي وتحديدًا في العطلة الصيفية، إذ تتم دراستها الثانوية.

وفي آخر خميس قبل الامتحانات قالت خطيبته:

- أرجو ألا نلتقي حتى تنتهي الامتحانات.

لكي تُركز في ختام سنتها الدراسية الأخيرة.

سكت سلمان قليلًا، ثم قال لها مازحًا:

- أهذا أمر؟

فردت عليه:

- ومن يأمر عليك حبيبي، بل هو رجاء.

ولمَّا حان ذهابه مع أخته إلى منزلهما، أوصلتهما ثنوة إلى الباب وقلبها يدق بسرعة، ثم بقيت واقفة عند الباب حتى ذهبت السيارة بعيدًا، وسلمان ينظر إليها بمرآة السيارة الأمامية. ثم عادت مسرعة لتفتح صندوق (البقلاوة) الذي أكل منه أبواها، فعلَّق أبوها مازحًا:

- الحلوى لذيذة لأنها من سلمان.

فابتسمت ثنوة خجلًا، ودخلت إلى غرفتها.

لقد كانت تمرُّ بلحظات عالية من السعادة لم تمر عليها من قبل، لقد كانت مصابة بالذهول كأنها في حلم، وصوت حبيبها لم يكن ليفارقها في أي لحظة، ولكنها قالت لنفسها: «كفى، يجب أن أكمل واجباتي فلم يتبقَّ كثير من الوقت».

وبعد أن ذاكرت دروسها استمتعت بقراءة نصوص في أحد دواوين الشعر، وعندما استلقت على فراشها لتنام استمتعت بعبير وردة حمراء، كان قد أهداها لها سلمان قبل أن تضعها بين طيات الكتاب وتخلد في نومٍ عميق.

ومرت الأيام عليها تقضيها بين المدرسة والمنزل. وأما سلمان فكان يقضيها بين العمل والمنزل، وكعادتهم كانوا يلتقون في كل يوم خميس في منزلها، عدا الخميس الذي كان قبل عقد القران.

وفي مدة الخطوبة ذهبوا برفقة أسرهم إلى الجزيرة السياحية، وهي عبارة عن منتجع جميل، به وافر من الحدائق والأزهار والماء والمطاعم، يرتاده البغداديون لقضاء بعض الوقت الجميل.

وفي المنتجع ترك لهما الأهل مساحة من الحرية، ليجدا فيها فسحة تحدثا فيها عن تخطيطهما لمستقبل حياتهما، ومستقبل أولادهما في لحظات حميمية جميلة.

كانت ثنوة ذات الملامح الجميلة والطباع الصارمة تحلم دائمًا بفارس أحلام له ملامح تشبه ملامح خطيبها الذي تعلقت به، وأصبح جزءًا من خيالها، فهي لم تؤمن بالحب إطلاقًا إلا عندما ظهر أمامها سلمان الذي غيَّر حياتها إلى بهجة وجمال.

لقد عشقت بسببه نهرَيْ دجلة والفرات رغم أنها لم تتعلم السباحة، ففي الطفولة كان أبوها يذهب بها مع العائلة إلى منطقة (ذيقار) حيث (الأهوار)، وكانت تتذكر جيدًا (المشحوف) كما يسميه أهل الجنوب، ونسائم الهواء ذات العبير الذي يصافح خدودها كشذا العطر الجميل.

وكانوا عندما يعودون من رحلة النهر تكون الجدة قد صنعت وجبة (الطابك)، وهي أكلة تصنع من أرز العنبر الذي تشتهر به مناطق الجنوب في العراق، ويكون الجد قد اصطاد بعضًا من سمك (الشبوط أو الكطان) وشواه على الحطب.

كانت حياة بسيطة مليئة بالحب والعلاقات الأسرية الجميلة، إذ يجلس الجميع من تلك القرية في البيت الذي صنع من القصب والبردي، ويتناولون طعامهم البسيط ذا الرائحة الذكية التي لا تُغادر الأنف من جمالها.

سافرت في عالمٍ من الذكريات حينما تذكرت عرس عمتها عندما زُفَّت إلى بيت زوجها، وكيف كان منظرها جميلًا بالحنة وملابس

العرس، إضافة إلى الأغاني والأهازيج الشعبية المُصاحبة للمناسبة.

تتذكر حينما أخذ أهل العريس عمتها، وأُطلِقَت النيران في الفضاء احتفالًا بتلك المناسبة.

حقًّا، لقد كان كل شيء بسيطًا وجميلًا ومطبوعًا بكل الحب في خيالها، لذلك كانت تُمنّي نفسها به، وتتساءل: هل ستحظى بمثله في عرسها؟ خصوصًا أن حياة العاصمة مختلفة جدًّا عن حياة الريف.

كما أن العلاقات الإنسانية أقل بفعل انشغال الناس بلقمة العيش الصعبة المختلفة عن الريف وحياته، إضافة إلى أن المدينة كل شيء فيها يُثمَّن بالمال والوقت، إضافةً إلى الضريبة على كثير من الخدمات، مثل الكهرباء والماء والاتصالات، وأيضا على الصحة، بخلاف الريف الذي كل شيء فيه يعد مجانًا لقلة سعره، فتربية المواشي والزراعة في المنازل والمزارع تجعل الناس مكتفين ذاتيًّا حتى ملابسهم بسيطة.

وفي خضم هذه الأفكار، تتساءل ثنوة عن تغيُّر الزمان، وتقول: هل تغيَّر الناس أم تغيَّر الزمان؟ ولذلك يشدها الحنين إلى الماضي حينما كان الناس يساعد بعضهم بعضًا، كما كان أبوها يحكي لها عن روائع الإنسانية، وتجليها بين الناس في المحبة، والترابط بين الأهل في جنوب العراق الجميل.

تتذكر حكاياته عن ذكريات الشعر الدارمي قديمًا بين الشباب والمسابقات التي كانت تُقام فيما بينهم، ويستعرضون فيها مواهبهم، وتخرج مستقبلًا أفضل الشعراء منهم.

وفي مجلس شيخ العشيرة الكل يصفق، والبعض يتحدث عن قصص مختلفة مليئة بالحكمة والعبر، التي انعكست على انتشار القيم الراقية بين أفراد المجتمع، واحترام العادات والتقاليد من الكبار والصغار.

وهذا ما جعل النسيج الاجتماعي قويًّا ومتماسكًا، والكل فيه يساعد الفرد، وهذا ما شاهدته ثنوة بنفسها عندما تعرَّض ابن جار جدها لحادث الغرق، فتظافر سكان أهل القرية كلهم مع العائلة المنكوبة، وقدموا لها الخدمات اللازمة جميعها، كما روت لها أمها تفاصيل تلك الحادثة بدقة لاحقًا.

هكذا كانت حياة معظم أهل العراق قديمًا، حياة بسيطة لا تحتوي على تفاصيل كثيرة، فهم منشغلون بلوازم حياتهم، يجمعهم وطن واحد هو العراق العظيم.

تسأل ثنوة أمها:

- هل من العادة أن يتم الذهاب بالعروس لزيارة أضرحة الأئمة للتبرك قبل زفافها؟

فتقول لها الأم:

- نعم، ولا يجوز الزفاف في عادات العراق في ذكرى استشهاد الحسين عليه السلام.

تعلق ثنوة:

- إذًا يا أمي ستأخذونني إلى كربلاء حيث الإمام الحسين والإمام العباس وإلى النجف حيث دُفِن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؟

ترد عليها أمها: نعم، ولكن بعد الانتهاء من مدة الامتحانات.

ومرت الأيام سريعًا، لتنشغل ثنوة بالامتحانات التي قد حان موعدها، وفي ليلة أول اختبار وهو اختبار مادة اللغة العربية، صلت الفجر وَدَعت ربها بالتوفيق والسداد.

وبعد تناولها طعام الإفطار، ذهبت إلى المدرسة مبكرًا لتذاكر جيدًا قبل الاختبار، وكعادتها مع زميلاتها أخذت تستحضر أهم النقاط في المادة، وتراجعها بطريقة جيدة.

وعندما حان موعد الاختبار دخلت القاعة، وتناولت من المراقبة الكراسة المختومة ورقمها الامتحاني، إذ تتضمن كراسة الاختبار أسئلة الوزارة.

بدَّدَتْ ثنوة قلقها، وبعد البسملة شرعت في قراءة الأسئلة، كانت تجيب كأنها تلتهم الأسئلة، إذ جاوبت بسرعة فائقة ودون تعثر، ففاقت مثيلاتها، ثم راجعت إجاباتها الأساسية والفرعية، وسلمت الكراسة إلى المراقبة التي استغربت من سرعتها!

وخرجت مسرعة تريد أن تصل إلى المنزل بسرعة لكي تطمئن والديها، فأمها قلقة عليها، وهذا أول امتحان لنهاية العام الدراسي ونهاية السنة هي الأخيرة من دراسة الثانوية، وبالنجاح فيها ستدخل الجامعة إذا كان معدلها مناسبًا.

دخلت إلى المنزل وبريق الفرح يشع من عينيها، وعندما سألتها أمها عن الاختبار قالت لها إنها أبلت بلاءً حسنًا، ثم دعت لها أمها قائلة:

- الله يا ابنتي، الله لا يضيع لك تعبًا.

تعلَّق عليها ثنوة بالتأمين على دعائها، وأخبرتها بأن اختبار اليوم التالي سيكون في مادة اللغة الإنجليزية.

رنَّ هاتف المنزل فكان المتصل هو سلمان يطمئن عليها وعلى يومها الأول في الاختبارات، طمأنته ثنوة، وتركها لتجد الوقت الكافي لمذاكرة مادة الإنجليزية.

أغلقت الهاتف، وذهبت إلى غرفتها وغيَّرت ملابسها، وقضت بعض الوقت اليسير مع أبويها ثم شرعت في البدء بالمذاكرة، وجاءت أمها لها بكوب عصير وقارورة ماء.

ثم وكعادتها في المذاكرة قسَّمت المنهج إلى أجزاء، ووزعت له الوقت بين المذاكرة الأصلية وبين المراجعة والتدقيق، وعلى الرغم من صعوبة المادة فإنه مساعدة بنت الجيران المجانية لها -كونها مدرسة للغة الإنجليزية- سهَّلت المهمة.

وبعد ساعات من الانهماك في المذاكرة شعرت بالجوع، فذهبت إلى المطبخ لتشمَّ رائحة وجبة (الدولمة) العراقية بدبس الرمان، التي أعدتها أمها بصورةٍ لذيذة، تناولتها بالخبز الذي كان أيضًا من صناعة أمها في الفرن، على طاولة المطبخ كانت تأكلها كأنها تتناولها للمرة الأولى.

كان أبوها يذهب للقاء أصدقائه في شارع المتنبي في مقهى قديم في كل يوم خميس، وبعدها يمارس معهم رياضة المشي، ويعود غالبًا إلى المنزل وهو يحمل معه كتابًا، خصوصًا (كتب المتنبي، روايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس، ودواوين نزار قباني أو السياب).

وكان أيضًا يشتري السمك الطازج لتجتمع العائلة في يوم الجمعة، ويأكلون سمك (المسكوف) المشوي على الطريقة العراقية المعروفة، وكانوا في بقية الأيام يأكلون وجبات أخرى بالخضار واللحم والدجاج.

مرت الأيام، وانتهت الامتحانات على خير، وفي آخر أيام الامتحانات عندما عادت إلى المنزل زغردت أمها فرحًا واستبشارًا بنجاحها، وقالت لها:

- بقي لي أن أتمم لك مراسم زواجك، وأنتهي من مسؤوليتك.

لتضحك ثنوة بخجلٍ جميلٍ وحياءٍ مدهش.

وحينها رنَّ الهاتف، فكان سلمان الذي بارك لها انتهاء الاختبارات، وأبلغها بموعد قدومه مع أسرته من أجل تحديد موعد عقد القِران والزفاف والاتفاق على كل التفاصيل المُتعلقة بذلك، لتصبح فرحة ثنوة فرحتين.

ثم جاؤوا يوم الخميس، واتفقت العائلتان على تفاصيل ليلة الحنة، وعقد القِران، بكل شروطه وتفاصيله، وعن منزل الزوجية وما تبقى من ديكوراته البسيطة. في البداية كان الاتفاق أن تسكن ثنوة في إحدى غرف منزل أهل سلمان، ثم بعد ذلك ينتقلون إلى شقة خاصة وقتما تسمح ظروفهم بهذا.

وفي المدة قبل عقد القِران، كانت ثنوة تذهب إلى التسوق مع أمها وقريباتها وصديقتها المقربة، ومعهن اشترت كل ما تحتاجه ووضعته في حقائبَ أضافت فيها بعض صورها مع والديها وأخيها وبعض ذكرياتها.

ثم أخذت من أبيها أفضل خمسة كتب لديه، وكتب عليها إهداء منه لها لأنها من أعزِّ الكتب على قلبه، ولأنها مطالعة ومتابعة وتهتم كثيرًا بالكتب، فقد أهداها تلك الكتب.

وهي بدورها جهَّزت فستان العرس الذي صنعه محمد المصري، وهو مصمم عراقي أسعاره جميلة، إذ ذهبت إلى معمله ثلاث مرات لقياس الفستان! وفي المرة الأخيرة اقتنعت به.

ورتبت أيضًا موضوع الزهور الذي ستحمله بيدها، وكان لصديقتها حلاقة متخصصة بصناعة شعر العرائس، فاختارت ألوانًا بسيطة ونموذج شعر بسيط وطلاء أظافر وتفاصيل زينة وجه تتماشى مع شخصيتها المثالية، وكانت تراعي في ذلك كله الكُلفة المالية؛ حِفاظًا على أموال خطيبها وتفاديًا لإحراجه.

وكان حينها سلمان أيضًا قد حجز الفرقة الموسيقية وقاعة الحفلة وسيارة الزفاف وزينتها، واتفق مع مُزيِّن صالة الأعراس، كما أنه جهَّز العشاء بالاتفاق مع أم كريم الموصلية المختصة بتجهيز الأعراس والتي راعته في السعر، واتفقا أن تعمل له كعكة العرس والعشاء والحلويات ونماذج المذكرات من الشوكولاتة على شكل قلبين مكتوب عليهما اسمه واسم ثنوة. وذهب أيضًا إلى مطبعة لطباعة بطاقات الدعوة، إذ اهتم بتفاصيل التصميم وتفاصيل كتابة الدعوة لحفل زفافهما.

وعند زيارتهم للأضرحة المقدسة شعرت ثنوة بدوار شديد، وسقطت على الأرض! فخافت أمها عليها كثيرًا، ودعت الله عند الأضرحة لها، وعندما أفاقت قالت لها إنها بخير وإن هذا محض

إجهاد شديد بسبب نقص النوم والقلق، وحاولت أمها الذهاب بها بعد ذلك إلى الطبيب، إلا أنها رفضت.

وفي يوم عقد القِران، جاء سلمان برفقة أقاربه وأصحابه، وجاء الشيخ مأذون الأنكحة لإتمام عقد القِران، وبعد أن تأكد الشيخ من الشروط التي لم تكن تعجيزية، شرع في قراءة سورة الفاتحة ووضع منديلًا ربط به أيدي العريس ووالد العروس، وقال لهما:

- هل أنتما موافقان على المقدم بالاتفاق بين الطرفين ليرة ذهب واحدة، ومؤخر ليرة ذهب واحدة؟

فردًّا عليه:

- نعم.

ثم عُقِد القران على خير، وعمَّت الفرحة بذلك منزل العروس، وارتفعت الضحكات وأصوات الفرح، وبارك الجميع للعروسين، إذ قبَّلت العروس رأس والد ووالدة سلمان، وقبَّل سلمان رأس والدة زوجته ووالدها.

ثم أمسك سلمان بيدي زوجته مباركًا لها ولنفسه هذا العقد المبارك، فابتسمت ولمعت عيناها من الفرح وهي ترتدي أجمل الثياب، واضعةً على رأسها الوشاح المزخرف بخيوط الذهب.

وحينها أيضًا تبادلا الخواتم، وغيَّرا أماكنها من اليد اليمنى إلى اليسرى، ليكون هذا دليلًا على عقد قِرانهما، وبذلك تعد ثنوة شرعًا زوجةً لسلمان، ولم يبقَ لها إلا أن تُزفَّ إلى بيت الزوجية.

وذهب الجميع إلى مائدة العشاء، إذ اصطحبهم والد ثنوة إلى حديقة المنزل حيث طاولات الطعام الأنيقة. وأما سلمان وثنوة

فجلسا إلى طاولة خاصة بالعروسين مزينة بالورود، ليتبادلا أطراف الحديث، كان سلمان يتأملها بعين الحب، فتحني رأسها خجلًا في لحظات غاية في الجمال، عاشاها بشغف عاشق.

وفي أثناء ذلك، كان قد تناول الجميع طعام العشاء، وشربوا الشاي العراقي، ثم رحلوا مودعين ومهنئين ومباركين.

كانت ليلة الحنة في اليوم التالي، وفيها يذهب كل واحد من العروسين إلى حمام خاص بتجهيز العرسان استعدادًا لليلة الزفاف.

وفي صباح اليوم التالي، كان يومًا صيفيًّا ساخنًا تتخلله نسمات من الهواء الجميل، ذهبت ثنوة مع أمها إلى الحلاقة لتجهيزها للحفلة الصغيرة التي تضم أقرب المقربات إلى العروس.

ثم جاءت لها بإناء الحنة ونبات الياس، كما هي العادات المُتعارف عليها، وأخذت خالتها ذات الحظ الحسن بغسل قدمَي العروس بماء الورد، ووضعت حبات (الحبهان) أو (الهيل) كما يسمى بين أصابع قدمَي ثنوة. ثم بدأت (الحناية) وهي امرأة مختصة بالحنة في تزيين يدَي العروس وقدمَيْها بالحِنة وربطها بمناديل جميلة مطرزة.

وكانت الحاضرات جميعهن يأخذن قليلًا من حِنة العروس لتخضيب أيديهن، وعلت الأصوات والأغاني والرقص والمباركة للعروس بحِنتها.

وكُنَّ يُغنِّين باللهجة العراقية: «هاي اللي رادها، وهاي اللي اتمناها»، مع الإكثار من الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تناول الجميع طعام العشاء.

وانتهت ليلة الحِنة، التي مِثلها يقيمها أهل العريس تكريمًا للعريس واحتفالًا منهم له بتوديع أيام العزوبية.

كان حفل الزفاف في اليوم التالي الذي صادف الشهر الثامن من عام ١٩٩٠ ميلادية، وفي ذلك التاريخ كان الجوُّ متوترًا في البلاد وينمُّ عن شيء قد حدث! إذ سمع الجميع الأخبار في الإذاعة الرسمية العراقية بيان دخول صدام إلى الكويت!

بدأ الناس في التوتر والنقاش، إلى درجة كاد أن ينسى فيها سلمان وثنوة زواجهما الذي سيتم في ذلك اليوم.

لقد أصبحت الكويت في لحظة هي المحافظة العراقية رقم تسعة عشر، كأن البترول أصبح لعنة على الجميع!

دخل صدام الكويت في ساعات معدودة، وأصبح أكثر من ثلث نفط العالم تحت سيطرته، رجل العراق الطموح، وتحت ظل أسد الشرق الذي هزَّ العالم بأسره آنذاك.

كان الشعب العراقي بعضه مصدق وبعضه مكذب، وتذكر الجميع علاقة العراق بالشقيقة الكويت الحميمة، فالعراق دافع كثيرًا عن الخليج، ودفع بمئات الآلاف من الشباب شهداء في سبيل حفظ أمن الخليج، واستنكر عملية اغتيال حاكم الكويت من الجانب الإيراني.

فقال أهل العروسين إن دخول العراق إلى الكويت لا يجب أن يغيِّر من مناسبة الزفاف شيئًا، بل إنه يمكن أن يُضفي على الأجواء المتوترة شيئًا من التغيير الجميل.

كان سلمان قد هيأ حفلة في فندق، وكان كل شيء على ما يرام، ولكي يكتمل الجمال جاءهم رسول من إدارة الفندق حاملًا معه رسالة تتضمن هدية من إدارة الفندق، وتضمنت الهدية إقامة في الجناح الرئاسي لمدة أسبوع.

قرأ سلمان الرسالة وهو جالس على الكرسي الذي خصص له بجانب عروسه التي كانت كالقمر، وتحت تلك المظلة المطرزة بأجمل الزهور الطبيعية، فهمس بأذنها وأخبرها عن ربح الإقامة في «الهوتيل» نفسه في الجناح الرئاسي.

كان الفرح يعمُّ القاعة، وكانت موسيقى معزوفة الدخول إلى الجنة تزفُّ العروسين، لقد عمل لها فرحًا تتحدث عنه الأجيال رغم أنه كادح.

اكتمل قمره أخيرًا مع حبيبته، ولقد كانت أمه تدعو له في أيام رمضان بالمرأة الصالحة، ولم يخذلها الله حيث منَّ على ابنها بأجمل الفتيات.

كان الحديث الغالب في الفرح عن أسباب دخول العراق إلى الكويت كخطوة يرون أنها جريئة، وكثر اللغط عن تنبؤات مستقبل تلك الحرب ونتائجها المجهولة، لم يكن حينها الشعب يدرك حجم الكارثة وما ستؤول إليه الأمور لاحقًا من أضرار جسيمة على العراق.

كانت الأغاني الوطنية في كل مكان، ومنها: «يا كاع ترابج كافوري على الساتر هل هل شاجوري»، ومثل هذه الأغاني كثير مما يثير الحماسة.

ورقص الجميع رقصة (الجوبي) العراقية، ورقص العروسان معًا ومع أهلهما فرحين مستبشرين حتى الثانية فجرًا، احتفل أهل العريس بابنهم بـ(الهلاهل) والتصفيق والأهازيج والأغاني والموسيقى الشعبية، من أجل زفة العروسين إلى جناحهما في أعلى طابق من فندق بابل.

أمسك سلمان بيدها فتعثرت قليلًا، ثم مضيا خطوة تلو أخرى، وخلفهما الأهل، والضيوف جميعهم يرددون الأغاني العراقية ويصلُّون على النبي صلى الله عليه وسلم.

دخل العروسان إلى جناحهما الذي كان مُجهَّزًا بالحلويات والفواكه والورود والروائح الذكية والموسيقى الهادئة، لقد كان كل شيء في ذلك المكان يُشعِر بالرومانسية ويرفع الطاقة الإيجابية، بل حتى ألوان الستائر ومقاعد الجلوس، وكذلك أقمشة وشراشف السرير.

وهما يحتسيان أكوابًا من النعناع قال لزوجته:

- أريدك أن تكوني عونًا لي على الزمن، وليس عونًا للزمن عليّ.

وأوصاها بأبيه وأمه خيرًا، وطلب منها حفظ أسراره، مؤكدًا لها أن هذه النصائح الثلاثة مهمة جدًّا وستنعكس إيجابًا على حياتهما.

أسدلت الستائر، ومضيا في قضاء ليلة زوجية ممتعة، وفي الصباح استيقظا بكل جمال وجلال وبهجة، وبعد الاستحمام والإفطار اتصلت أمها بهما لتطمئن على أحوالهما، وأحوال ابنتها التي كانت في لحظة خجول جدًّا.

لم تكن حينها مفاجآت الفندق قد انتهت، إذ جلب النادل بطاقة مقدمة من إدارة الفندق تخبرهما بأنها ستقيم لهما حفلًا صغيرًا بمناسبة الزواج في المساء عند التاسعة مساء، وبحضور أشهر الفنانين العراقيين.

وعندما بدأ الحفل الذي أحياه المطرب «حاتم العراقي» بعدد من الأغاني العراقية الوطنية، وصل العروسان إلى الطاولة المزينة بالشموع، كانت الإضاءة خافتة، وكانت القاعة مُزينة بالزهور، وكانت في وسطها كعكة كبيرة كُتب عليها اسمَي العروسين اللذين قطَّعاها بعد مدة بسيف له مقبض مُزيَّن بالورود، إذ وضعت ثنوة يدها على يد سلمان وقطعا الكعك وسط تصفيق الحضور، لتتخيَّل ثنوة نفسها في تلك اللحظة كأنها الأميرة ديانا.

ولأن أيام السعادة تمضي بسرعة، هكذا مضى أسبوع العسل، وعادا إلى منزل أهل سلمان الذين رحبوا بها كثيرًا، إذ كانوا يرونها ابنتهم، وكانت سعاد مسرورة جدًّا بها.

في الأسبوع التالي، بدأ المرض يظهر على أم سلمان، وبدأ جسمها ينحل وبدأت حرارتها في الارتفاع بصورة غير طبيعية! فطلبت منه ثنوة الذهاب بها إلى المستشفى، وعندما سألها طبيب الجهاز الهضمي عن مشكلتها، قالت له إنها تعاني من آلام في البطن وإسهال مستمر منذ أكثر من شهرين. عندها صمت الدكتور للحظة ثم قال:

- تحتاج إلى تحاليل دم، وبعدها سنقرر.

ظهر على وجه سلمان الجزع، وعندما عادا إلى المنزل سألته ثنوة التي كانت تنتظرهم على نار القلق، فردَّ عليها أن الطبيب لم يوضح لهم أيَّ شيء، لكنه طلب إجراء تحاليل شاملة في اليوم التالي على الصيام.

وفي صباح اليوم التالي، ذهب سلمان وسعاد بأمهما إلى المختبر الطبي، إذ جلست الأم على الكرسي، وجلبت الممرضة الشريط المطاطي وأخذت تضرب على يد الأم برفق لكي تلاحظ الوريد.

كان يوجد عدد من القناني الصغيرة للعينات، ومكتوب على كل قارورة (اسم المريض والتاريخ ولأي غرض)، وأُخذت العينات بنجاح، وأخبروهم بأن النتائج ستظهر بعد خمسة أيام.

وعندما سألهم سلمان عن التأخير، ردَّت عليه الممرضة:

- يوجد تحليل واحد يتطلب ذلك.

التقى سلمان صدفة في المستشفى بصديقه الذي سبق وأن استدان منه بعض المال ووقف معه في عرسه، لقد رأى صديقه أخته سعاد هذه المرة عن قرب، فقال له:

- ما الخطب؟ عسى ما شر!

فردَّ عليه سلمان:

- نحن نطمئن على صحة أمي بفحوصات عادية.

ولكن أمه تقيأت في السيارة في أثناء عودتهم إلى المنزل، مما أحزن سلمان ولكنه كان متفائلًا بنتائج التحليل التي ستظهر بعد خمسة أيام.

وبعد ظهورها أثبتت شيئًا غير جيد، وهو أن أم سلمان تحمل الورم الخبيث في أمعائها في مراحله المتأخرة!

واصل سلمان عنايته بها مع وقفة نبيلة من زوجته ثنوة التي اعتبرت أمه كأمها.

كان العراق حينها في حالة تأهب قصوى للدخول في حرب مؤكدة مع الولايات المتحدة وحلفائها، بخصوص تحرير ما تسمى بدولة الكويت بعد أن ضمها العراق إلى خارطته المحافظة رقم تسعة عشر.

وعلى الرغم من أنواع المفاوضات والتنازلات كلها، فإن العراق أصرَّ على إنجازه التاريخي بحسب رؤية القيادة آنذاك.

في تلك الأيام وبعد اشتداد الوطيس، شارك سلمان في الجيش الشعبي العراقي في تلك الحرب التي سميت بحرب الخليج الأولى، لقد كانت حربًا قاسيةً ومؤلمةً على الشعب والجيش، إذ تعرض فيها العراق إلى خسارة المحافظة التاسعة عشرة، وتعرض سلمان في الحرب إلى إصابة شديدة كادت أن تؤدي بحياته.

وبعد معاناة أمه من الألم وشُحِّ الدواء بسبب فرض الحصار من التحالف العالمي على العراق، الذي شمل منع كثير من أنواع الدواء عن المرضى، مما أدى إلى سقوط آلاف من الضحايا.

عانى الشعب العراقي من ويلات الحصار الذي شملت أضراره كل شيء، من مأكل ومشرب وملبس ودواء، وتراجع بسببه العراق في مجالاته كلها، فعمَّ الفقر والخراب والرشوة، لأن الرواتب لم تعد تكفي ليوم واحد!

ولكن على الرغم من هذا، كان الجميع يعيش على البطاقة التموينية العائلية، التي تحتوي على عناصر عديدة من المواد الغذائية الضرورية للعيش.

وفيما يتعلق بالمسؤولين، لم تكن السرقة متفشيةً بينهم، ليس لأنهم أنبياء وإنما لأن القانون كان كحد السيف، يُطبَّق على القريب والغريب، وعلى كبار المسؤولين قبل غيرهم.

ولأن الحياة أصبحت صعبة، فلقد ارتفعت جرائم السرقة بين طبقات الشعب الفقيرة، لأن متطلبات الحياة أصبحت عديدة، فلم يحافظ على نفسه حينها إلا من كان قد تربى على الفضيلة.

وحتى المخطؤون قد تكون أجبرتهم قسوة الظروف أحيانًا على ما لا تريد أنفسهم، لكي يؤمِّنوا لقمة العيش لعائلاتهم.

كان الإعلام الخليجي والعالمي حينها مشغولًا بالعراق لأنه يحتوي على ثلث البترول العالمي، مما تسبب بتحكم العراق في أهم شريان للحياة وهو الطاقة، وهذه فكرة لم يستطِع أن يفهمها ممن لهم مصالح في الشرق الأوسط. بل إن العراق قد يكون لديه فكرة مقايضة البترول بالذهب، وليس لدى الدول العظمى ودوائر الشر ما يغطي تلك المبالغ بالذهب.

خرج العراق من حرب طاحنة مع إيران مكبلًا بالديون لكثير من الدول، وبخاصة دول الخليج والكويت التي لم تنصفه آنذاك حينما طالبت بديونها في الوقت الحرج، إذ كان برميل النفط لا يساوي أكثر من ١٢ دولارًا أمريكيًّا.

لقد شعر العراق بغدر الأهل والأشقاء قبل الأغراب، لأنه خسر مليون شهيد أو أكثر بالدفاع عن البوابة الشرقية للوطن العربي من أطماع الطامعين، ولأن أول من وقف إلى جانب العدو قبل الصديق هم الأهل والأشقاء، انتفض العراق على ذلك مما تسبب بكارثة عربية عالمية وشرخ كبير لا يندمل.

إلا أن الكويت لم تجلس صامتة على ذلك، بل حشدت الرأي العام وحلفاءها، ودفعت المليارات لكي تسترجع سيادتها، ونجحت في ذلك، وكل فلس خسرته الكويت في ذلك الاجتياح نالت تعويضه لاحقًا، وبمحكمة دولية من قوت الشعب العراقي، الذي تحمَّل عناء الحصار طويلًا.

لقد عانت أم سلمان كثيرًا، وعانى معها أهلها ببذل محاولات كثيرة للحصول على العلاج لذلك المرض الخبيث، الذي أصابها في القولون، وكان سلمان يعاني كثيرًا في البحث عن الدواء بسبب غَلاء العلاج وعدم توفره.

وكان يقضي ساعات طويلة من العمل المتواصل الشاق على سيارته المتواضعة، وكان في بعض الأحيان يضطر إلى أخذ قرض أو مساعدة مالية من صديقه.

واستمرَّت الحال على ذلك أكثر من سنتين، وحال والدته في تراجع مستمر! بل أشدُّ معاناةً وألمًا، ووالد سلمان المتقاعد لم يكن بيده حلٌّ سوى أنه يتقطع من الألم على زوجته، ويثني على سلمان ويبارك جهوده، وثنوة صابرة مع زوجها على ذلك كله.

كان العراق والعالم يشتعلان على كفِّ عفريت، فالعراق فوهة البركان عندما أصبح علاء حسين رئيس حكومة الكويت التي أصبحت المحافظة العراقية التاسعة عشر.

ولذلك فقد كان أغلب الزعماء العرب كانوا ينظرون إلى صورة سوداء مخيفة يعمُّها الظلام، مثل الرئيس المصري حسني مبارك الذي كان متشائمًا، ويُحذِّر من كارثة قادمة للوطن العربي، ولذلك طالب بقمة عربية للتوصل إلى حلٍّ ضمن الإطار العربي.

وبالفعل، عُقِدت القمة العربية في شهر أغسطس، وكان الجميع خائفًا بما فيهم الولايات المتحدة التي كانت قلقة وتنتظر نتائج القمة.

لقد كان الرئيس المصري حسني مبارك حليفًا للولايات المتحدة، وكانت مصر أكبر دولة من حيث التعداد في المنطقة، وهذا ما جعله يطالب بشدة إنهاء الهيمنة على الكويت.

وهذا ما حصل حينما أصدرت الجامعة العربية مسودة قرار تُدين العراق، وتدافع عن الكويت والسعودية.

لم يكن العراق يطمع في أرض أحد، وإنما يثأر لما قالته الكويت بحق الماجدة العراقية التي هي رمز الشرف والكرامة.

ولقد نجحت الكويت في إقناع السعودية، وتخويفها وجرِّها إلى عداء دائم للعراق!

ونسي الجميع حينها أن هناك شعبًا يُقتَل تحت وطأة الحصار الغاشم، ويحتضر من الجوع والألم! وكل ذنبه أنه دافع عن كرامة الأمة العربية ثمانية أعوام، ضحى فيها بمليون شهيد من خيرة شبابه.

لقد أصبح العراق كيوسف وإخوته! فالجميع يريدون قتل هذا الأخ الذي يعتقدون أن أباه يحبه أكثر منهم!

واستمر العراق يضعف يومًا بعد يومٍ في الجانب الاقتصادي بسبب الحصار، حتى أصبح الأخ يكاد يأكل أخاه!

ولكن على الرغم من كل شيء، كان الأمن يعمُّ المدن العراقية، والكل راضٍ بما قسمه الله له، ويعتبر أن كل ما جرى هو ابتلاء من الله -عَزَّ وَجَلَّ- فالغني يساعد الفقير.

والدولة كانت تعمل بقدر الإمكان على تغطية حاجات المواطن الضرورية.

لقد أصبح المجتمع رشيقًا بالإجبار، لأن السُّكَّر كان يُحسَب بعدد الغرامات للفرد الواحد، والحلويات أصبحت نادرة، بل عليك أن تطلب طلبًا خاصًّا لكي تحصل على كعكة عيد الميلاد!

كانت الأمور العادية في الدول المجاورة تعد في العراق من الرفاهية بسبب الحصار، بل وتعدى الأمر إلى أن سفر المسؤول أصبح صعبًا جدًّا، لأنه يجب أن يكون قدوةً للمواطن العادي ويعيش مثله، فالعدالة كانت تُطبَّق على الجميع.

وهكذا كانت هذه المشاهد، وغيرها من الإفرازات التي نتجت عن حرب الكويت والحصار الجائر، فلكل مرحلة من التاريخ ميزاتها، والظرف فيها تحكمه قوانينها وإكراهاتها.

وكثيرًا ما كان العراقيون يتحدثون عن آثار الحصار على النسيج الاجتماعي، إذ كان أمره يشغل الصغير والكبير.

لقد كان الهدف من الحصار الضغط على العراق وإرغامه على ترك الكويت، وقد حصل سريعًا، لكن الحصار استمر إلى سنوات على شعب أعزل عانى الويلات من تبعاته.

وظلَّت العقوبات نافذةً بذريعة وجود أسلحة الدمار الشامل في العراق، تلك الفكرة التي روَّجت لها الدوائر الاستعمارية بحجة الهيمنة، مما أدَّى إلى تدمير البنية التحتية للبلاد من محطات اتصال وكهرباء.

وطال الحصار المصانع، منشآت النفط، مخازن الحبوب والأسواق المركزية، مما أدى إلى شلل تام في المصالح التجارية والصناعية.

بل حتى الملاجئ لم تكن آمنة أمام القصف الصاروخي، إذ لا ينسى العراقيون تلك الضربة لملجأ العامرية، التي ذهب ضحيتها الآلاف من المدنيين العُزَّل، بل إن عوائل بالكامل رحلت وما زالت أرواحهم تنادي: بأيِّ ذنبٍ أُزهِقَت؟

وبعد اثنين وأربعين يومًا من الحرب الطاحنة التي طالت كل شيء، وفي تلك الأيام الحزينة، رحلت أم سلمان إلى العالم الآخر، لترتاح روحها من عذاب الألم والفقر وقلة العلاج!

ودخل سلمان الحزين في دوامة دفن أمه في النجف، وكان الوقود غير متوفر في السيارة لولا جاره الذي سحب له شيئًا من البنزين من سيارتهم القديمة ووضعه في سيارته، لنقل جثمان أمه برفقة بقية أفراد العائلة إلى مثواها الأخير في النجف الأشرف.

كان الوضع صعبًا في العاصمة بغداد، فالجيش الشعبي في كل مكان، لقد تحولت الحرب إلى حرب دفاع عن الأرض، واستمرت مرحلة الطوارئ، وتعوَّد الناس سماعَ أصوات صافرات الإنذار في كل مكان!

لقد كان الطريق نحو المقبرة مريبًا ومخيفًا، فالوحدات العسكرية في كل مكان! استوقفته وحدة تفتيش في أطراف بغداد من جهة النجف، وعلى الرغم من أنهم رأوا نعش أمه فوق السيارة، فقد

سألوه من أجل ضبط الأمن.

كان الدمع يغطي ذقنه والنساء تتباكى، الحزن كان واضحًا على وجوه الجميع.

واصل طريقه نحو المقبرة، وكان يرى ثكنة عسكرية هنا ويرى بعض الخراب والأدخنة من هنا وهناك، وبعض التجمعات العسكرية في مفترق الطرق، حتى وصل إلى مشارف النجف الأشرف، لتبدو قبة الإمام علي بن أبي طالب الذهبية واضحة.

وصل إلى المقبرة التي كان يُشرف على حراستها رجل كبير في العمر، وهذه هي وظيفته فقط، وكان حينها بسبب الحصار قد تأخر عليه مرتبه شهرين، ولا يملك من حطام الدنيا إلا بناته الأربع اللاتي فقدنَ أُمَّهنَّ بسبب القصف العشوائي للأبرياء.

ساعدهم في دفنها ودعوا لها، ثم أخرج سلمان بعض المال صدقة على روحها ووضعه في يد حارس المقبرة، الذي بدوره رفع يديه إلى السماء، وبصوت مسموع دعا لسلمان وأمه بالجنة والفردوس الأعلى، ثم أشعل سلمان الشموع على قبر أمه، وودعها عند حلول المساء عائدًا إلى بغداد.

لقد كانت العراق في حالة طوارئ دائمة، وكان الطريق حزينًا كقلب سلمان الذي فارق أعزَّ ما يملك في الوجود.

وتخفيفًا عن أحزانه، كان يردد الأذكار دائمًا على طول الطريق الذي كان طويلًا ومملًّا، حتى وصلوا إلى بغداد لتبدأ صفحة جديدة لأسرتهم، وللعراق الذي كان حينها قد خرج من الكويت، وعادت

الحدود كما كانت قبل دخول الكويت من حيث الأرض مع اختلافات كبيرة بالبنية التحتية.

شكَّلت الحكومية العراقية لجانًا طارئةً عالجَتْ معظم التخريب الذي تركته الحرب.

شعرت ثنوة في تلك الأيام بأعراض الحمل، وذهبت إلى الطبيبة النسائية التي كتبت لها تحليلًا للكشف عنه، وجاءت النتيجة بأنها حامل.

ومرت الأيام، وسلمان يجلب لها أيَّ شيءٍ تريده حُبًّا وشغفًا، حتى جاءها المخاض لتذهب مع أمها وأخته إلى المستشفى.

جاءت إليه الممرضة وبشَّرته بالمولود، ليُخرِج كل ما في جيبه من مال فرحًا وسعادةً واستبشارًا، كانت لحظة مختلفة في حياته، واتفقا على تسميته باسم جد سلمان محمد، على الرغم من أن ثنوة كانت تريد اسم (الوليد).

ثم كبَّر في أذن الطفل، وصلى صلاة الشكر لله على رزقه وسلامة زوجته.

وذهب بعد ذلك إلى السوق، وجلب معه الغداء الذي كان وجبة من الكباب المشوي، لكي تُعوِّض بها بعض الطاقة التي فقدتها في الحمل والإنجاب، كان سلمان يطعمها بيديه، وقبَّل رأسها، ثمَّ خرجا بعد ساعات من المستشفى.

كانت ثنوة قد هيأت سابقًا لوازم طفلها كلها، ثم حاولت إرضاعه إلا أنه رفض الرضاعة، وفي اليوم التالي ظهر صفار على وجهه وعينيه، وهو مرض يسميه أهل العراق (أبو صفار)، فهرعت به مع سلمان إلى الدكتور للكشف والاستشارة.

وبعد أيام عاد الرضيع إلى وضعه الطبيعي، وشرعت ثنوة في إرضاعه الرضاعة الطبيعية، نظرًا إلى غلاء حليب الأطفال وعدم توفره في تلك الحقبة الصعبة في أثناء الحصار.

وبسبب ذلك تربى محمد قوي البنية، ونطق ومشى الخطوات الأولى قبل أقرانه على الرغم من تغذية أمه البسيطة، لكنها كانت تأكل مما يتوفر من (وحش الطاوة) كما يسميه العراقيون، وهو الباذنجان المقلي الذي يحتوي على كثير من الفيتامينات وبخاصة الحديد.

لقد تغيرت معالم جسم ثنوة بسبب الولادة، فزاد وزنها قليلًا، ولكنها حافظت على جمالها، والأهم من ذلك أن سلمان يراها أجمل أنثى في الكون، ولا يرى أجمل منها في عينيه، وكان دائمًا يغازلها ببعض أبيات من الشعر الدارمي الجنوبي، وهي تبتسم.

ولم يعترف سلمان بما يسمى بعيد الحب، فكل أيامه مع ثنوة وابنهما تفيض حُبًّا وشغفًا ورِضًا وشكرًا لله على ما أنعم به عليهما من فضل.

وكان سلمان كلما تحصَّل على رزقٍ جلب لطفله لعبة أو ملبسًا أو قطعة شكولاتة؛ لقد تعلَّق بولده كثيرًا وأحبه حُبًّا جمًّا، إلى درجة

أنه كان يعدُّ الساعات والدقائق الثقيلة في أثناء العمل لكي يعود إلى منزله ويرى زوجته وابنه، حيث الحميمية العائلية الجميلة.

كان في كل يوم خميس يأخذ زوجته وابنه إلى أحد المتنزهات، وملاهي الأطفال في جزيرة العرائس أو الزوراء، أو أي مكان آخر على كورنيش الأعظمية، وأحيانًا لزيارة الإمام الكاظم.

وفي يوم الجمعة، كانت ثنوة تذهب إلى زيارة أهلها في حياة مليئة بالبساطة والسعادة.

لقد كان الأمان يعمُّ بغداد، ويمكن للإنسان أن يمضي بين شوارعها في أي ساعة من الليل والنهار دون أن يتعرض لأي أذى، فالقانون في العراق يُطبَّق على الصغير والكبير، الفقير والغني، فلا فرق بين مواطن وآخر إلا بما يُقدِّم للوطن، فالعراق للجميع.

أُصيب طفلهما محمد بالإسهال والحمى حتى شارف على الموت، لولا صديقة العائلة الصيدلانية زهرة، التي كانت تجلب الدواء عن طريق علاقاتها بسبب الحِصار لتنقذ به الطفل.

مرت الأيام، وشعرت ثنوة مرةً أخرى بأعراض الحمل، إذ كانت ترغب في إنجاب طفلٍ آخر، فلم يعترض عليها سلمان على الرغم من صعوبة الظروف.

ليرزقهما الله طفلًا أسمياه **صفاء**، وكان له شعر أسود طويل، إذ ترعرع صفاء بفصاحة لسانه الجميلة، كبر وكبرت أحلامه معه، وكان

كلما يسأل أمه ثنوة عن شيءٍ من تأملات الحياة، تردُّ عليه بأنها تخاف عليه من عقله!

لم يفهم حينها ماذا تعني أمه بذلك! درس الابتدائية في حيِّهم الشعبي في بغداد، وفي كل عام كان يجدد تفوقه على أقرانه.

وحتى عندما كان يلعب معهم لعبة (الشرطة والحرامية)، كان يختار دور القاضي.

كانت أمه تحكي له قصصًا قبل النوم، منها قصة ذلك الرجل الذي أودع جاره جرة النقود الذهبية، وغاب عنه خمسة عشر عامًا، وبعد عودته جاء يُطالِب بما ائتمنه عليه، وبالفعل أعطاه الأمانة، لكنه عندما فتحها وجدها مجرد جرة من الزيتون، خالية من النقود الذهبية، وحينها اشتكاه إلى القاضي الذي كان ظالمًا، فحكم بسجن صاحب الجرَّة وعتق السارق!

إلا أن صاحب المال حينها لم يسكت عن حقه، واشتكى إلى الحاكم من فعل القاضي، وأمره الحاكم بالعودة إليه بعد أربعة أيام.

وفي ذلك الوقت، رجع الرجل المظلوم بخطى ثقيلة إلى منزله وهو ممتلئ بالإحباط، لكنه كان يمتلك بصيص أمل بالله ﷻ، فعين الظالم تنام، وعين الله لا تنام.

وفي الليلة نفسها، أخذ الملك حارسه الشخصي ووزيره معه وتَنكَّر وسار على فرسه في طرقات المدينة، حتى مرَّ على منزل قديم

له سور مهدم تسكنه امرأة أرملة وأبناؤها الثلاثة، الذين صادف حينها أنهم كانوا يمثلون قصة (الرجل والقاضي الظالم والسارق)، إذ كان أحدهم يمثل دور القاضي والآخر دور الشاكي والثالث دور المُشتَكى منه.

وجاء الرجل المظلوم بجرَّة فتحها صاحبها، وإذا فيها زيتون، فقال القاضي وهو الابن الأكبر:

- افتح الجرَّة وأعطني من الزيتون.

وعندما تناول واحدة منه قال له:

- أنت كاذب، لأن هذا الزيتون لا يُعمّر أكثر من أربع سنوات في هذه الجرة وبعدها يتلف، والرجل أودع لديك المال منذ خمس عشرة سنة، سأحكم عليك بأن تُصلَب أمام الجميع لكيلا يخون الأمانة أحد غيرك، وعليك أيضًا أن تُعيد المال إلى صاحبه.

وبعد أن سمع الحاكم كل ما جرى من حديث بين الصبية، أرسل طالبًا مقابلة أحد الأبناء، فخافت الأم كثيرًا على ابنها، ولكن الابن لم يخَف، وأخبرهم بأنه جاهز لمقابلة الحاكم في اليوم التالي.

فعلَّقت الأم بكلام متقطع من شدة خوفها، وقالت إن ابنها ليس لديه ملابس مناسبة لمقابلة الحاكم، فردَّ عليها المرسول:

- لقد أمر له الملك بألف دينار ليشتري لباسه.

فتساءلت الأم مجددًا:

- ولكن ماذا يريد الملك من ولدٍ صغير؟

فأجابها: خيرًا إن شاء الله.

وفي اليوم التالي، اشترت الأم لابنها ملابس مناسبة لمقابلة الحاكم، ومضت به نحو قصر الحكم لمقابلة الملك، الذي بدوره أرسل لجلب القاضي والرجلين (صاحب الجرة والسارق).

صاح الحاجب للولد باسمه، وعند دخوله ناداه الملك وأمره بالجلوس إلى جانبه، وسأله:

- كيف حكمت على صاحب الجرة؟ ومَن سرقه؟ وكيف خطرت ببالك فكرة الزيتون؟

فأجابه إن المدرس في المدرسة أخبرهم أن الزيتون يعيش أقصى حد إلى أربع سنوات فقط.

لقد كشف الملك بذلك ألاعيب القاضي وغباءه وعرف الحقيقة، فطلب من الولد الصغير أن يكون قاضيًا يفصل النزاع في هذه المشكلة، ثم أمر أن يدخل القاضي الذي حكم سابقًا برفقة الظالم والمظلوم، ليحكم الولد عليهم بالطريقة نفسها وبكل ثقة، كاشفًا بهذا الحقيقة ومُعيدًا المال إلى صاحبه. وعلى الرغم من اعتذاره، فقد أقاله الملك.

كم قاضٍ مثله يفعل الكوارث كل يوم؟! كم مظلوم هُدِر حقه بلا وجه حق؟! وكم من ظالم ينام ملء عينيه؟! كانت هذه الأسئلة وغيرها تشغل بال صفاء، وهو يستمع إلى قصص أمه التي تردُّ عليه دائمًا بأن الأمور بخير، وأن المهم القناعة والرضا.

لقد كان صفاء صادقًا مع نفسه كثيرًا وكريم النَّفْس، فهو يقسم طعامه الذي تضعه له أمه في حقيبته الدراسية مع أقرانه، كان شهمًا وقائدًا يرفع العَلَم في المدرسة كل يوم خميس، وكان يقول لأمه إنه كلما رفع العَلَم اقشعر بدنه وبكى، لأنه يرى راية الوطن خفاقة، فكانت تردُّ عليه بأنه يحب الوطن، فسألها:

- ماذا يعني الوطن؟

فقالت له:

- الوطن كالأم؛ يحتضننا كما أحتضِنكَ وتشعر بدقات قلبي ويغطيكَ بالدفء والأمان، الوطن يحمينا ويغطينا من برد الشتاء وحرِّ الصيف...

وختمت حديثها داعيةً للأوطان العربية بالسلام.

كانت تأخذ صفاء في حضنها، وتمسح على شعره الأسود الطويل، تُقبِّله بحرارة وتقول له دائمًا:

- ربِّي لا يحرمني من ها الْوَجه الحلو.

تجذرت علاقته بأمه بصورة قوية جدًّا، إلى درجة أنه كان عندما يعود من المدرسة إلى المنزل، فإن أول كلمة يقولها «ماما» وبصوتٍ عالٍ، ولا يرتاح له بال حتى يسمع صوتها.

وذات مرة، عاد إلى المنزل وكانت أمه في بيت جده لأن أمها كانت مريضة، وأخذت الغداء معها، وتركت له ورقة ألصقَتْها على باب المطبخ، أمرته فيها أن يتبعها إلى بيت جده، ولم يرتَح إلا عندما وجد

الرسالة، فهرع راكضًا إلى بيت جده الذي كان بقربهم. وصل إليها واحتضنها في المطبخ، واشتم وشاحها الذي كان يحب رائحته منذ الطفولة، وكانت هي كلما بحثت عن وشاحها وجدته عنده، لذلك عندما كبُر أصبحت أحيانًا تضعه له في حقيبة المدرسة لأنه يمثل له الأمان.

كان صفاء فضوليًّا يُحِب الأسئلة، وأحيانًا يخترق الخطوط الحمراء، ليثير بذلك عصبية أبيه الذي يقول له:

- "راح اتجيبنا مصيبة، تريد تعدمني!"

فيردُّ عليه صفاء بثقة:

- ولماذا تحدث المصيبة؟ ألَمْ يخلقنا الله أحرارًا؟ ألم تعلموني أنْ لا أسجد إلا لله؟

يردُّ عليه أبوه:

هذه الحقائق صحيحة، ولكنها لا تُطبَّق في العراق، فنحن في مجتمع يُكمِّم الأفواه، وهذا هو مجتمعنا العراقي المُتحفِّظ دائمًا، لقد وصلنا يا بنيَّ إلى درجة أن الأب أصبح يخاف من ابنه أن يَشِي به عند السلطات.

ويتابع سلمان حديثه قائلًا:

- البقاء للأقوى لغة الغابة، وعلى الرغم من رفضها، فقد أصبحت أمرًا مفروضًا على أهل العراق، لقد وضع الجد (حمرابي) على مساءلته التي سرقها الاستعمار قوانين استفادت منها الأمم،

ولكن نحن أبناءه لم نطبقها، فلو طُبِّقَت يا بني لأصبحنا أفضل وأرقى الأمم.

ثم يحكي سلمان له هذه القصة، التي قال فيها إنه في يوم من الأيام نزل سارق في منزل أحد ملوك العراق، فقبض عليه الحُراس، وعندما جاءوا به إلى الملك سأله:

- لماذا تريد أن تسرق بيت الملك؟ ألَمْ تجد غيره؟!

فأجابه قائلًا:

- لأن الشعب كله فقير، فقلت لنفسي: لمَ لا أسرق بيت الملك الذي يملك كل شيء؟

فقال له الملك:

- ألا تعمل؟

فقال له:

- وفِّر لي عملًا.

ردَّ عليه الملك:

- إذا وجدنا لك وظيفة وعيَّنا لك مرتبًا، فهل تسرق؟

قال له:

- لا يا مولاي، وإذا سرقت عندها احكم عليَّ بالإعدام.

فأمر الملك أن يوفروا له عملًا.

ثم تابع سلمان قائلًا:

- قد يضطر الشباب إلى الانحراف يا بني لعدة أسباب، منها: الحاجة إلى المال أو الفراغ القاتل، خصوصًا أن الشاب لديه طاقات كامنة يجب أن يفرغها في مَا ينفع مجتمعه، وإذا لم يجدها ينحرف، ولذلك فإن مسؤولية الدولة أن تجد السبل لتوجيه الشباب.

كان سلمان وأبوه يحدثان الأبناء عن تاريخ العراق وعادات المجتمع الجنوبي العراقي، وكانت أمه توصيه دائمًا بالحياء، وألا ينظر إلى بنات الجيران وأن يساعد الكبير قبل الصغير، إضافةً إلى قصصها اليومية له قبل النوم، ومنها قصة الصبي الذي لم يتجاوز ربيعه العاشر، عندما كان رئيس وزراء العراق في خمسينيات العصر الماضي يسير في سيارته مع مرافقه الخاص، التي كانت تُقله ببطء، فمرَّ من جواره فاقترب الطفل الذي كان يرتدي ملابس مهترئة، وفي قدميه خُفَّان مهترِئان، في القدم اليمنى خف لبنت، وفي اليسرى خف لولد!

فأمر رئيس الوزراء مُرافِقَه أن يقف ويأتوا إليه بالطفل، وعندما وصل قال الرئيس للطفل باللهجة العراقية:

- "ليش تلبس نعال تك وتك؟".

فأجابه: بسببك! (أي أنت من كان السبب)

سأله الرئيس بكل هدوء:

- هل لك أن تفسر لي كيف؟

فردَّ عليه الصبي:

- قُتِل أبي في إحدى معارككم العسكرية التي كنت أنت قائدها، وبعد استشهاده لم تعطنا الدولة أيَّ مرتب تقاعدي ولا أيَّ امتيازات أخرى، على الرغم من أننا فقدنا عائل أسرتنا، وعندها لم تستطع أمي أن تجلب لي ولأختي حذاءً لنرتديه، لذلك أصبحت أنا وأختي نتبادل الأحذية مرة ومرة.

فأخذه رئيس الوزراء في حضنه وقال له:

- كل الحق حقك يا ولدي عليّ، فأنا السبب، وعليك أن تبصق في وجهي مئات المرات.

فامتنع الصبي خجلًا. وتابع الرئيس قائلًا:

- مكانك ليس في الشارع وإنما في المدرسة، وسنصرف لكم منزلًا ومُرتَّبًا، وسنمنح أباك الشهيد وسام الشرف والشجاعة.

ولم يكتفِ بذلك، إذ أصدر قانونًا لكل حالة مثل حالتهم.

كل يوم كانت ثنوة أو سلمان يحكيان لأبنائهما قصصًا حقيقيةً تحكي واقع المجتمع والبلد، ثم يسألانهم عن الفائدة من تلك القصص، ويمنحانهم مكافئات إذا أجابوا أجوبة صحيحة، أو حفظوا آيات من القرآن الكريم.

وسارت الأيام ولم تعلم ثنوة أن القدر قد خبأ لها كثيرًا من الآلام، إذ بدأت تشعر بالألم في صدرها وظهرها، ولكن تتحدث مع نفسها بأن هذه الألم قد يكون سببه تعب المنزل لأنها تفعل كل شيء فيه، ولم تشكِ إلى أحد، بل ولا خطر على بالها يومًا أن تذهب إلى الطبيب، كأنها عقدة أصبحت لديها بعد أن فقد سلمان أمه في مرض عانت منه كثيرًا.

أما سلمان، فكان يأخذ ابنه صفاء معه أكثر من أخيه لأنه اجتماعي، عكس أخيه الذي كان يُحب عالمه الخاص.

وبعد كدٍّ وتعبٍ اشترى سلمان لعبة (الأتاري) الإلكترونية لأبنائه لكي يتسلوا بها، ولم يهتم صفاء بها كثيرًا لأنه اجتماعي، وأما أخوه فكان يلعب بها عدة ساعات، خصوصًا في أيام الإجازة.

وكان صفاء يذهب مع أبوَيْه إلى سوق (الشورجة) وشارع المتنبي، حيث تعوَّد أن يجمع مصروفه المدرسي ويشتري به كتابًا بمساعدة أبيه أحيانًا، وباختياره الخاص في أحيانٍ أخرى، إذ يكون عرف عنوان الكتاب في حصة اللغة العربية أو من زميل له.

لقد كان صفاء فضوليًا جدًّا، وكانت هوايته الأساسية القراءة والسؤال، فكان يسأل كثيرًا أهله أو مدرس التاريخ عن ماضي بغداد العريق، وعن معركة القادسية، وتفاصيل الحرب العراقية الإيرانية، وعن تاريخ العراق والحُكَّام الذين توالوا على الحكم.

وذات مرة، تحدث مدرس التاريخ عن حقبة زمنية في بداية سبعينيات القرن، إذ سمعها من ذويه، وهي قصة حقيقية عن ذلك الحاكم الذي زار مدينة (بعقوبة) في محافظة (ديالي) العراقية، حيث ترجَّل الرئيس من سيارته متجولًا بين بساتين المنطقة، ورأى عبَّارَةً على حافة النهر مهجورةً قد أكل عليها الزمن وشرب.

اقترب أحد المرافقين من الحاكم وقال له:

- سيدي، هذه العبَّارة وضعت الدولة يدها عليها.

فالتفت الحاكم مُستنكرًا وقال له:

- الدولة بريئة من هذا العمل!

فاقترب شخص آخر وقال:

- هذه عبَّارة حامد، وهو أخ عبد الكريم قاسم الذي كان رئيسَ الوزراء في حقبة من تاريخ العراق.

فتغيرت ألوان الحاكم، وأصدر أمرًا بإرجاع العبَّارة إلى أصحابها أو إلى ورثة الرجل، وتعويضهم عن الظلم الذي حلَّ بهم.

وعند عودة الحاكم إلى بغداد، طلب من سكرتيره الخاص إصدار أمر بالبحث عن أقارب الزعيم، فوجدوا أخته في حالة صعبة، كانت فقيرة وكبيرة السن، فأمر الحاكم بصرف راتب تقاعدي لها، وأمر بحسابه بأثر رجعي عن السنوات الماضية.

ويُعلِّق المدرس على هذه القصة، فيقول لتلاميذه:

- ابتعدوا عن لغة الانتقام، خصوصًا مع أصحاب الحقوق، لأن مواجهتهم بالحديد والنار لا تأتي بنتيجةٍ جيدة، بل تنعكس بالسلب «وتزيد الطين بلة» كما يُقال في الأمثال. فالعنف لا يَحُل الأزمات، بل يخلق ردودَ الفعل غير المتوقعة ويُثير العَداء ويُكبِّر الفجوة بين الناس والمجتمع والحاكم، لذلك فإن أي مشكلة يجب أن يعتمد الجميع في حلها على الحوار والحديث المَرِن للوصول إلى نتيجة مُرضِية للجميع.

عندها استأذن صفاء متسائلًا عن كيفية الحوار البنَّاء، فردَّ عليه الأستاذ:

- بالعقل والمنطق.

لقد تعلَّق صفاء بجده الذي أسهم في تربيته، وهو دومًا يتعلم منه ويتأدب بأدبه ويرتوي من تجاربه، ولطالما حدَّثه عن عدالة عمر بن الخطاب، وعن شجاعة عليّ بن أبي طالب، وعن حياء عثمان بن عفان، وعن صدق أبي بكر، رضي الله عنهم وأرضاهم.

وكان يقول له:

- المسلم كالشجرة التي تنبت في الصحراء ولا يتساقط ورقها، فيكون مثل النخلة التي يستظل بها القاصي والداني، وهي مثمرة وثمرها مبارك.

لقد كان يقول له إن إسلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان فتحًا على المسلمين، وبيَّن له أنَّ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- القريشي يشترك مع الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- في جده كعب ابن لؤي، ويحمل لقب «أبو حفص الفاروق» -رضي الله عنه- لأن الله فرَّق به بين الحق والباطل.

وكان ميلاده بعد النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- بثلاث عشرة سنة، ولديه ثلاثة عشر ولدًا من الذكور والإناث.

وكان في الجاهلية شجاعًا، إذ تحمَّل المسؤولية في سنٍّ صغيرة، فكان يرعى الغنم، يحب رياضة المصارعة وركوب الخيل، يحب الشعر والتاريخ ويعمل في التجارة. وهذا ما أهَّله ليكون -رضي الله عنه- حكيمًا بليغًا حصيفًا قويًّا، اختارته قريش قبل الإسلام ليكون سفيرًا لها.

وبينما يستمع صفاء إلى قصة عمر -رضي الله عنه- كان يذهب بعيدًا بتفكيره ويتخيَّل عظمة عمر رضي الله عنه، ويتمنى أن يكون للبلاد حاكمٌ مثله، ولذلك كان جده يقول له:

- يومًا ما ستكون أنت عمر.

كان صفاء يتقدم على أقرانه في الرياضيات وفي المواد الدراسية أغلبها، وكان موهوبًا في الشعر، إذ شارك في عدة مسابقات شعرية ونال فيها التكريم، كان يعشق الخطابة وسرد القصص على المسرح ويشارك دائمًا في النشاطات المدرسية.

وكان يُثني عليه معلم اللغة العربية، وعندما يذهب أبوه للسؤال عنه في مجالس أولياء أمور الطلاب، يقول له المدير والمعلمون كلهم أنَّ صفاء لا يحتاج إلى المتابعة الأسرية، لأنه رجل وإدراكه وفكره أكبر بكثير من سنوات عمره.

في أثناء تلك السنوات، وفي عام ١٩٩٨، قصف الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بغداد في عملية سُمِّيَت (ثعلب الصحراء)، وكان الهدف المُعلَن منها هو ضرب أهدافٍ عسكرية، لكنها كانت تنطوي على حقيقةٍ مُرَّة ومخططٍ واسعٍ يتربص بالعراق سوءًا أكثر مما هو فيه. ومن ذلك وضع الحِجَج الخاوية والاتهامات الباطلة، التي منها عدم تعاون الحكومة العراقية آنذاك مع بعثة الأمم المتحدة!

وبذلك تكون أمريكا قد كررت ما فعلته في العام ١٩٩٣، عندما قتلت الفنانة التشكيلة الجميلة الفائزة بالشراع الذهبي (ليلى العطار)، التي لم يكن لها ذنب في كل ما يدور إلا أنها كانت صاحبة فكرة وضع صورة (بوش الأب) على إحدى أرضيات مدخل أحد فنادق بغداد، فربما تكون هذه الفكرة هي سبب قتلها بصواريخ أمريكا التي سقطت على منزلها في حي المنصور في شارع الأميرات.

بسبب ذلك، أطلق الدفاع المدني صافرات الإنذار التي تعوَّدها الشعب العراقي كثيرًا، حتى إن الأطفال كانوا يُخيفون بها العجائز عبر تقليدها بأفواههم.

وحول مقتل الفنانة، تحديدًا في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، سُمِع دويُّ أصوات الصواريخ والانفجارات، إذ استمر ذلك

المشهد المخيف وغير الإنساني مدة خمس وعشرين دقيقة، وفي صباح اليوم التالي كانت رائحة البارود تعمُّ المكان، لترحل جميلة العراق!

لقد تعلَّق صفاء بالفن والمسرح والشعر المرتبط بالوطن، وكل ما يتعلَّق بمشاهد التضحيات، فكان يُصغي إلى كل مَن يتحدث عن الحاضر والماضي، ويُخزِّن ذلك كله في عقله وقلبه.

ثم مرت الأيام، كبُر صفاء وكبرت معه همومه، أصبح شابًّا يكتب الشعر ويردد دائمًا: «أنطيني وكت بين الرصاصات لحظة ما إجِت رادت إعدامي».

ازدادت وطأة الحصار سوءًا على الشعب العراقي الذي عانى الصعوبات، وأصبحت لقمة العيش صعبة على كثيرين، وكان أبو صفاء رجلًا كاسبًا كما يُقال باللهجة العراقية «عيشته على ذراعه»، ولكن سيارته أصبحت قديمة وأصبحت أعطالها كثيرة، فمعظم مكسبه كان يذهب إلى ورشة التصليح، وفي بعض الأحيان يُبدِّل الإطار تحت الشمس الحارقة.

وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف عن العمل، حتى جاءت تلك الليلة الغبراء في أيام احتلال العراق، إذ كان في طريقه نحو النجف ليصادف نقطة تفتيش يُسمِّيها أهل العراق (سيطرة)، وكان فيها خليط بين الجنود الأمريكان والعراقيين المدججين بالسلاح. توقف في بداية الأمر، ثم تحرك ببطء، حتى قال له الشرطي الأمريكي:

- اخرُج من السيارة.

فلم يفهم سلمان ما يقول، ثم ضغط بقدمه على مكبح الوقود وانطلق! حينها أطلق عليه الجندي الأمريكي النار على رأسه، كاتبًا بهذا نهاية سلمان عليه رحمة الله.

تلقَّت ثنوة خبر وفاة زوجها ورفيق دربها، كانت فاجعةً بالنسبة إليها، فصرخت وضربت على رأسها، ولم يفهم أبناؤها ما الذي يحدث، لكنهم أدركوا أن خطبًا مُحزِنًا قد حدث.

فكَّر صفاء في أمر وفاة والده من زاوية الأمل، فمن قتله الاحتلال الأمريكي الغاشم للعراق يُعدُّ له ذلك مفخرة، لأنه قُتِل دفاعًا عن وطنه وحريته.

مرَّتْ بذهنه في تلك اللحظات أحاديث والده جميعها عن الحرية والعدل والإنصاف، وعن الحُكم الذي مرَّ به العراق، وكيف كان له كثير من المحاسن والسلبيات، التي منها الدمار وقلة السيادة والتدخلات.

كان صفاء حينها منقطعًا عن دراسته بسبب ما حصل من حرب ودمار وخراب، فمعظم المدارس ضربتها صواريخ العدو ودمرتها؛ اعتقادًا منهم أن القيادة العراقية أسكنت الجيش في المدارس. وهذا الاعتقاد غير صحيح، فلم تكن القيادة العراقية في أي يومٍ عدوةً لشعبها الذي تحاول حمايته في كل يوم.

تذكَّر صفاء قصة حكاها له جده من أمه، تروي أنه كان هناك أسد يعيش مع ثلاثة من الثيران في غابة كثيفة الأشجار وذات مروج واسعة، والثيران الثلاثة كانوا ثورًا أبيض وأحمر وأسود، وكانوا يحبون بعضهم بعضًا، ويُسانِد بعضهم بعضًا في الأزمات، إذ لا يستطيع أحد الاقتراب منهم.

كان الأسد شرسًا وصيادًا محترفًا لا يصعب عليه أي حيوان، لكنه لم يكن يقترب منهم لتعاونهم، ولأن الغابة كانت وفيرة بحيوانات أخرى تضمن له غذاءه.

وفي صيف حار أصاب الغابة قحط وجفاف، فقلَّت الحيوانات حتى كادت تنقرض، فبدأ الأسد حينها يفكر في حيلة يستطيع أن يُضعِف فيها مِن قوتهم، وعندما اقترب منهم تظافروا على صده، فقال لهم أنه يطمع في تكوين صداقة معهم! التفت الثيران بعضهم إلى بعض، وكل منهم في عينيه نظرة الاستغراب من تصرف الأسد.

ومضت الأيام وهُم سعداء مع صديقهم الأسد، حتى جاء يوم وانفرد الأسد بالثور الأحمر والأسود، وقال لهما:

- ألا ترون أنَّ الثور الأبيض بلونه الناصع يكشف مخبأنا دائمًا ويعرضنا إلى الخطر، أما نحن فألواننا متشابهة؟!

ثم تخلص الأسد منه، وبعد أيام كرر المحاولة نفسها وتخلص من الثور الأسود، وبقي الثور الأحمر خائفًا يترقب، وعندما جاء الأسد يريد افتراسه، قال الحكمة العربية المشهورة: «أُكِلتُ يوم أُكل الثور الأبيض».

وفي طفولته، شاهد صفاء سيارة جارتهم -التي استُشهِد زوجها في إحدى الحروب- وهي تتعرض للسرقة، فذهب مُسرعًا وطرق بابها، وكان يصرخ ويقول:

- اتركوا سيارة الجارة أم علي (أرملة خطية).

حتى سمع الجميع صوته وهرب السارق بسببه، فخرجت أم علي من منزلها مذهولة، وقدَّمت له الشكر وقالت:

- نحن أهل يا بُنيّ، فإذا سمحنا اليوم لأحد أن يسرق السيارة، فغدًا سيسرق منزلنا.

فاقترح عليها أن تضع قفلًا على المِقوَد أو جهاز إنذار يحمي السيارة، فمسحت على رأسه ودَعَتْ له ووصفته بـ(أبو الغيرة).

لقد تكررت حالات السرقة كثيرًا في مدة الحصار، إذ أوقف شخص سيارته في مكان ما، وعلى الرغم من وضعه قفلًا على المقود، فقد سرق السُّرَّاق إطاراتها الأربعة.

كان صفاء وأخوه يعملان في مجالات العمل المتوفرة، فتارةً يبيعان الجرائد، وتارة يعملان حمَّالَيْن في (سوق الشورجة).

كان صفاء عاشقًا لساحة الحرية، فهو معجب بالمناضل (جيفارا)، ويرى أنه رمزٌ للحرية دائمًا، وكان ينظر إلى ساحة الحرية بكل فخر وإعجاب، حتى قبضت عليه الشرطة ذات يوم وسجنته مدة قصيرة.

كان صفاء يعشق الحرية على الرغم من أن بلده كان موطنَ القضبان والقيود، وكان ثائرًا على واقعه ورافضًا كلَّ أنواع العنف والنعرات، وقائدًا للحرية، فهو يعتقد أن كل من حكَمَ بلاد الرافدين لم يُعطِ للشعب حقه، ولذلك كان يرسم لوحات عن قيود محطمة ومنكسرة تحت ظل كفٍّ مرفوعة ورايةٍ تُرفرِف.

كبر صفاء وبدأ الدراسة في كلية الهندسة التكنولوجية، حاملًا معه أفكاره التي اختمرت في ذهنه، فهو ينام ويحضن تلك الأفكار، وينهض في كل صباحٍ حالمًا بالحرية التي ينشدها على أرض الواقع.

كان يتأمل الرمز الذي صنعه الفنان العراقي المبدع (جواد سليم)، الذي مزج فيه بين تاريخ العراق القديم والحديث، ووضعه في ساحة الحرية عند الباب الشرقي من بغداد في عام ١٩٥٩.

لقد عشق ذلك الجندي الذي يكسر القضبان متوسطًا النُّصُب الذي يقف في ساحة الحرية بكل شموخ، إضافةً إلى الحصان رمز العروبة والأصالة والحيوية، ثم رواد الثورات الذي كان يرى نفسه تنصهر مع نفوسهم نحو الجانب الأيسر من النُّصُب إلى الأمام.

حلم كثيرًا بالسلام في بلاد دار السلام، التي أصبحت لاحقًا -وللأسف- تعيش بلا سلام، بفعل النعرات الطائفية!

كان صفاء يعتقد أنه لا أحد في العالم يعشق العراق مثله، ولقد حلم كثيرًا برؤية طوائف وشرائح الشعب جميعها يتعايش بعضها مع بعضٍ في سلام داخل الجامعة وخارجها.

كان زميله عليّ قريبًا منه، وعلى الرغم من أن أباه كان عضوًا في البرلمان العراقي وحياتهم ثرية، فقد كان ينتقد الطبقة السياسية، ولم يكن راضيًا عن دور أبيه في تلك العملية السياسية. وعلى الرغم من أنه يتمتع بالامتيازات التي يتمتع بها أبوه، فإنه يملك ضميرًا حيًّا، ولذلك فقد كان يتقبل انتقادات صفاء للوضع الذي لم يكن يرضيهم جميعًا، ولذلك فإن صفاء لم يذهب إلى الانتخابات السياسية منذ الاجتياح الأمريكي للعراق.

ومرت الأيام، كان في كل سنة جامعية تلو الأخرى ينجح بتفوق، ويفرح به الجميع الذين ينتظرون تخرجه بكل شغف، فالوظيفة ستساعده في إعانة أهله، خصوصًا أمه التي أتعبها المرض الخبيث، ولم تكن المستشفيات العامة بالقدرة التي تؤهلها لعلاج مرض السرطان بسبب الحصار، وكان في كل مرة يأخذها لتلقي العلاج يعاني الاثنان كثيرًا من عدم توفر الشروط الصحية والعناية اللازمة.

ساهم ذلك في جعل صفاء ينتقد كل شيءٍ في دولة كانت الخدمات فيها تزداد سوءًا، والفساد السياسي والمحاصصة استَشْرَت بين كل طوائف المجتمع، فكل الساسة كانوا يعملون لخدمة أنفسهم، وليس لخدمة الوطن! ولذلك كان يُكرر دائمًا: «الشعب يستحق الأفضل».

كان يرى الأمل في نهاية الأُفق، ويرى في نفسه الثائر الذي سينقذ أمه وأخاه اللذَيْن كانا يقولان له باللهجة العراقية: «فكر على كدك لا تودينا في داهية!».

جاء ذلك اليوم الذي كان صفاء يجلس في ساحة التحرير وحده، فسأله الشرطي:

- ماذا تفعل هنا؟

فردَّ عليه:

- أبحث عن الحرية!

أجابه الشرطي ساخرًا:

- ابحث عنها هناك، في بيت أمك.

وركله بقدمه!

عندها، أدرك صفاء أن للحرية ثمنًا باهظًا، لا بُد فيه من كسر القيود، وتحقيق الحرية مهما كان الثمن، لذلك فقد شارك كثيرًا في مظاهرات ضد الحكومة الفاسدة، كما كان يردد لإصلاح ما يمكن إصلاحه دون جدوى.

بل إنَّ اسمه وضعته حكومة الفساد في قائمة الذين يشكلون خطرًا على العراق، لذلك كانت كلما تحدث مظاهرة أو اعتصام يطرقون بابه لأنه المتهم الأول أمامهم دائمًا.

كان صفاء يقول في نفسه: «هذا الحال لن يدوم طويلًا، ولا بُد لليل أن ينجلي، ولا بد للقيد أن ينكسر».

تخرَّج صفاء في كلية الهندسة وهو يحمل معه همومَ أمه والوطن الجريح، وريثما يجد الوظيفة المناسبة، عمل في بيع

الجرائد وفي حمل البضائع، ليغطي بهما علاج والدته التي لم ينفعها العلاج بسبب ظروف العراق الصعبة. لم يترك بابًا إلا وطرقه لكي يحصل على وظيفة في تخصصه أو حتى في أي تخصص آخر، واستمر جاهدًا في كسب العيش منتظرًا الوظيفة.

بقيَ على تواصل مع صاحبه عليّ الذي ترك الجامعة بسبب قضية اختلاس لأبيه البرلماني، وسافر إلى بيروت ومن ثم إلى باريس. لم يكن علي مُهتمًّا بدراسته، وكان دائمًا يعترض على طريقة أبيه في الحياة، إلا أنه يتمتع بالامتيازات جميعها التي وفرها له أبوه بطريقة غير مشروعة، كغسيل الأموال المنهوبة من الشعب العراقي الفقير! فأبو عليّ أمثالُه كُثر، الذين نامت ضمائرهم ورحلت في مهب ريح الثروة التي تكونت في يوم وليلة بالاستغلال السيئ وغير الإنساني والدنيء للمنصب.

لقد اختار صفاء طريق المجد والعز والفخر وابتعد عن الرذيلة، وأما زميله في الدراسة حسين، الذي كان الأول على الدفعة، كان قد ذهب إلى مدينة (وهان) في دولة الصين لدراسة الماجستير. كان لونه أشقر وشعره مجعدًا مائلًا إلى الصفرة، ولم يكن يضحك كثيرًا، قليل الحديث، دقيق الملاحظة وسريع البديهة، وكان معجبًا بشخصية صفاء المتمرد على واقعه.

ذهب زميله إلى الصين وبقي هو في العراق يواصل البحث عن العمل، وكان بين آونة وأخرى ينطلق مع أصحابه وبعض المواطنين إلى ساحات الاعتصام ضد الفساد في بلاد ما بين النهرين، التي علَّمَت العالم القانون المكتوب في (مسألة حمرابي).

كان دائم التواصل مع حسين عبر الشبكة العنكبوتية، وكثيرًا ما تحدث له حسين عن الصين ودرجة تطورها التكنولوجي في مختلف المجالات، وكيف أن الشعب الصيني شعب جبار، ذو إرادة قوية والجميع يعمل فيه دون توقف.

كان صفاء معجبًا جدًّا بالصين ويتمنى الذهاب لها، إلا أن قِصر ذات اليد منعه من ذلك، فهو بالكاد يستطيع أن يغطي علاج أمه، وأصبح وضعها يزداد سوءًا، مما جعل حالته النفسية تسوء أكثر فأكثر، كأن الدنيا أغلقت أبواب الأمل أمامه، لكنه كان يتمسك بالأمل، ويدعو الله له ولأمه بالصحة والرزق والعافية.

يتذكر صفاء تلك القصة التي حصلت له في الطفولة، إذ شاهد البائع الجوال الذي كان يُردِّد في أرجاء الحي هذه الكلمات:

- اللي عندو سعادة، اللي عندو فرح، اللي عندو حزن، اللي عندو دمعات قديمة للبيع...

فذهب إليه وقال له:

- عندي ضحكتين قديمات أريد بيعها.

وسأله عن سعر الضحكات في ذلك اليوم.

ردَّ عليه:

- ضحكة الطفل بدينار، وضحكة العجوز بألف، وعلى حسب العمر نشتري.

فاستغرب صفاء وقال له:

- الضحك هو الضحك ذاته، فلماذا فرق الأسعار؟

فقال له:

- لأن ضحكة الكبار نادرة، هذا سبب غلائها!

لم يفهم صفاء حينها ما يقول، لكنه اشترى بضحكتين بسكويتًا، وعاد إلى المنزل ليسأل أمه عن ضحكات أبيه التي خبأتها عندها، فبحثت معه عن ضحكات أبيه ولم تجدها، لقد وجدت مخبأها مليئًا بدموع سلمان القديمة، وأعطته منها ما يريد.

ثم عندما سمع مجددًا قدوم مشتري الأحاسيس والمشاعر، أسرع إليه وسأله عن سعر دموع الكبار، فقال له:

- الكبار يبكون دائمًا يا ولدي، ففي شارع المجزرة نهر من الدموع، وفي المقبرة نهر آخر! حتى إن أرملة الشهيد يوسف تمتلك أكثر من برميلين من الدموع التي لم تجد من يشتريها.

وواصل حديثه بأن تجارته في شراء ضحكات الكبار، وبيَّن له أنه يحب شراء النوادر، كأن يشتري شرفًا من العاهرات، كذبًا من الأمهات، حِكمًا من المجانين ووفاءً من المسؤولين!

ثم همس في أذنه قائلًا:

- اليوم يوم الجمعة، فإن وجدت صِدقًا في خطبة الشيخ أحضره لي لكي أشتريه منك.

فزع صفاء حينها من نومه، وذهب خائفًا إلى أمه التي وجدها تئِنُّ من الألم، فقبَّل رأسها ودعا باكيًا لها.

غسل وجهه وغير ملابسه وذهب إلى (الشورجة)، وكان في طريقه حزينًا على أمه التي تركها تئِنُّ من الألم في المنزل، رنَّ جواله فيما كان يمضي على جسر (السنك)، لكنه لم ينتبه بسبب سرحانه الشديد، لم يكن يعلم خلفيات ذلك الاتصال، ولم يكن يعلم ما في الغيب، وأن ذلك الاتصال يخبئ له أخبارًا غير سارة إطلاقًا.

لقد كان صفاء حينها متوترًا كثيرًا، كأن قلبه يحدثه بأمرٍ جلل، وعندما اقترب من منزله شاهد مشاهد غير عادية، فلم يكن الوضع حينها طبيعيًّا البتة. وعندما دخل إلى المنزل، كانت الصدمة التي لم يتوقعها قط، لقد وجد أخاه يبكي عند جثة أمه ثنوة وقد فارقت الحياة!

اقترب منها وأمطار الدموع تهطل بغزارة من عينيه، وقال لها:

- "أنا صفاء حبيبك إجا، ثنوة قومي افتحي عينج، ما لحكت أجيب العلاج".

لم يضرب لهذا المشهد أي حسابٍ من قبل.

ثم ضرب على رأسه، واحتضنه أخوه وقال له:

- "لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يعطينا الصبر يا أخي، فلم يعد لدينا في هذه الدنيا إلا الله ﷻ".

كان صفاء يرفض أن أمه قد ودعته إلى الأبد، كأنه حينها قد خسر كل شيء، شعر أن روحه قد خرجت من جسمه، أخذ وشاح أمه يحضنه ويذرف دموع الحزن، حينها ربَّت أخوه على كتفه بكل لطف وتعاطف.

وبعد انتهاء أيام العزاء علَّق صورتَها في المنزل، ووضع لها صورةً أخرى في جيبه لا تفارقه، وكان حينما يشتاق إليها يخرجها من جيبه ويتأمَّلها كثيرًا بكل حبٍّ وشغف.

وبعد عدة أيام جاء إليه أقرب أصدقائه يواسيه، وقد جلب معه وجبةَ الغداء، وحاول أن يكسر الروتين الحزين باستذكار أيام الدراسة وأيام الاعتصامات.

كان صفاء يشعر بأن الدنيا قد أوصدت أبوابها في وجه حينما فقد أعزَّ إنسان على قلبه، كان يراها في المنام، يزور قبرها ويزرع الوردَ حوله.

شعر كثيرًا بالوحدة، وحدة فراغ أمه، ووحدة البطالة والبحث عن العمل، حتى دلَّه أحد أصدقائه على فرصة عمل، قدَّم لها الأوراق في شهر تسعة من العام ٢٠١٩، لكنه وعلى الرغم من تقديمه الأوراق كان غير متفائل، ويشعر بأن الوظيفة لا تنتظر أمثاله، لأنه من الطبقة المتوسطة وليس لديه أي ضلع أو واسطة في الحكومة من أحزاب، وحشد وغيرها من المسميات. لا سيَّما أن الوضع الوظيفي يتطلب المحسوبية للأسف، لذلك كان يقول لنفسه: «ليس لكَ إلا

الاعتصام في ساحة التحرير ضد المحاصصة، والفساد من الطبقة السياسية».

ظهر قبوله في الوظيفة، إلا أنها بطالة مقنعة، وخدعة من الفاسدين فقط لإسكات الشارع وتكميم أفواه الشباب عن الفساد، عندها قرَّر صفاء وكثير من الشباب مواجهة كل من تسميهم طبقة الفساد الذين يلقبونهم بأصحاب لعبة (الببجي) الإلكترونية الشهيرة.

كان يتواصل عبر مواقع التواصل مع أصحابه ممن يقتنع بالقضية ويُطالب بوطنٍ حرٍّ، ليخرج الجميع في الأول من أكتوبر في أواخر العام ٢٠١٩ إلى (ساحة التحرير)، التي اتخذها الجمع المؤمن بقضية حرية الوطن من الشياطين التي تحكمه.

كانت أعدادهم في بداية الأمر ليست كبيرة، لذلك سخِر منها الساسة، واستهزؤوا من مطالب الشباب المشروعة، حتى توسعت دائرة المطالب بكل ما هو مشروع ومُقدَّس ألا وهو الوطن الحُر.

وتوسعت أيضًا دائِرة الاعتصام من تظاهر سلمي إلى ثورة سلمية أدواتها: (العلم العراقي، الكمام، التكتك).

حينها واجهت الحكومة هذه المظاهرات السلمية بشتى أنواع القمع من الرصاص الحي وطلقات القناصين إلى بنادق الصيد والدخانيات، التي تضرب رأس المتظاهر وتأخذ معها نصف جمجمته.

لقد حاول المتظاهرون إيصال رسالتهم إلى العالم بجمع الدلائل التي تُدين الحكومة المُجرِمة، ورفع قضايا ضدَّ الإنسانية في محكمة

العدل الدولية في (لاهاي) وفي المنظمات الإنسانية والدولية. بل إن معظم شعوب العالم أدركوا ماذا يحدث على أرض السلام، عبر شاشات الأخبار على مدار الساعة، وتعاطفوا مع الشباب ومطالبهم المشروعة.

إلا أن الجارة الشريرة لم تقف مكتوفة الأيدي، لا سيَّما أن من يحكم العراق كانوا وما زالوا يدينون لها بفضلٍ لا ينسونه، حينما هربوا إليها فرارًا من العدالة والعقاب على اختلاسهم وفسادهم وإفسادهم. لقد تقاسموا الكعك من رزق الشعب العراقي وأرضه وحقوقه، فاستفادت بذلك الطبقات السياسية، وبقي الشعب جائعًا مريضًا فقيرًا.

استمر توافد الجحافل من كل صوبٍ إلى ساحة التحرير، وأصبح صفاء كالشمس التي هي مركز الأفلاك وتدور حولها النجوم. أصبح الكل ينظر إليه كأنه المناضل (جيفارا) وكأن الأمل كله بين يديه، ينسج من خيوط الشمس جِسرًا للشعب يعبر به المرحلة الصعبة، مرحلة التركَة المُهشَّمة التي أورثها الاحتلال الأمريكي ودوائر الشر الاستعمارية.

وبدأ صفاء يُعبِّئ مَن حوله كلهم بما يجول في خاطره كله تجاه وطنه المُقيَّد بقضبان الشر.

لقد رصد صفاء كل شيء، وحوَّل ما يجول في خاطره كله بصورة مسرحية لمحاربة الفساد أمام الجميع في ساحة التحرير. وخطب أيضًا فيهم خطبةً عصماء، وجَّه فيها كثيرًا من الأسئلة المتعلقة

بهموم الشباب.

لقد شكَّل صفاء الرمز والمركز للشباب جميعهم، الذين التفوا عليه بكل شغف، فهو قائدهم الملهم الفذ.

وكان الجميع مُستعد لتلقي أيِّ كارثة من الحكومة، التي قررت أن تقتل أبناء الشعب وتتمسك بكراسي الحُكم، ولم تُدرِك أن إرادة الشعب فوق كل شيء، وكما يقول الشاعر:

إذا الشعبُ يومًا أرادَ الحياةَ   فلَا بُدَّ أنْ يستجيبَ القدر
ولا بُدَّ لليلِ أنْ يَنجلي   ولا بُدَّ للقيدِ أنْ ينكسِر

وهكذا هي الثورات، تبدأ بالأفراد وتنتهي بالجماعات.

والمصائب عندما تأتي أسرابًا كالطيور المهاجرة، أو تكون مثل أسراب الجراد عندما تنقضُّ على المحاصيل، فلا تبرح حتى تُنهي كل ما حولها، وكذلك الثورات التي لا تنطفئ نارها حتى تحرق الأخضر واليابس من آثار الفساد الغاشمة. وأيُّ عملية انقلاب أو تغيير لا تنجح حتى تُغيِّر كل نظام الحكم، ولا تُبقي أيَّ جذور له لكيلا ينمو مجددًا، فهو كخلية السرطان التي يجب أن تُستَأصل بالكامل.

والحلُّ هو التغيير الشامل للفساد، لأن وجود تفاحة فاسدة في صندوق ستعمل على إفساد الكل، ولا يمكن أن تربط الغنم الجربَى بالصحيحة خوفًا على تلك الصحيحة.

لقد كان مبدأ صفاء في التغيير مذهب غاندي الذي يعتمد على «السلمية الكاملة في التغيير»، وهي أعمق وأبلغ من السلاح، وهذا ما أثبته للعالم أجمع.

وكان أغلب الموجودين في ساحة الحرية يرتدون الكمامات لتلافي خطر القنابل الدخانية التي كانت تُلقيها عليهم عناصر الحكومة فتخترق رؤوسهم بلا رحمة، بل إنها اخترقت (دستور بريمر) الذي تنُص إحدى فقراته «إن من حقِّ أيِّ مواطن التظاهر السلمي»، ولأن التظاهر سلمي فيُعتبَر ضرب المتظاهرين أمرًا مخالفًا للدستور العراقي الذي وضعه الاحتلال، فهل يعقل أن المحتل يكون أكثر رحمة من الحكومة العراقية البالية؟!

لقد انقلبت موازين الإنسانية، بل تعدت وحشيتهم إلى خطف وتعذيب النشطاء المدنيين والإعلاميين، وحتى إجبارهم على التوقيع على أوراق بيضاء، أجبروهم فيها على عدم الاستمرار، كما قُتِل كثير من النشطاء في بغداد وفي المحافظات الأخرى التي انتفضت ضد الظلم والاستبداد.

وفي الجانب الآخر، سطَّر الشباب في ساحة الحرية صورًا لا ينساها التاريخ بحبر من دمائهم لشراء حرية الوطن الجريح والحبيس بين أيدي سياسيين ظَلمة وسُرَّاق.

وتمضي الأيام، وكل يوم تواصل الحكومة أعمالها المشينة، لكي تُثبت للعالم أن التظاهر السلمي إرهاب دموي، لكن مخططاتها فشلت على الرغم من تأييد الجارة الشريرة لكل ذلك.

بل إن عمائمَهم تبرأت منهم، بسبب ما فعلوه من قِلة إنسانية ووحشية ضد المتظاهرين. لقد اتهموهم بأنهم يتلقون الدعم من جهات خارجية لزعزعة الأمن في العراق، وهم بريئون من تلك التُّهَم كبراءة الذئب من دم يوسف عليه السلام.

لقد جُنَّ جنون الحكومة التي أصبحت بين مدة وأخرى تُرشِّح رئيسًا يرفضه شباب الاعتصام في الساحات، وبدأت الأقنعة تسقط قناعًا تلو آخر.

ويوم تلو يوم كان يدرك العالم أن شباب وشعب العراق لا يرضى بأنصاف الحلول، لقد مرَّت على مخيمات ساحة الحرية وبقية الساحات أصعبُ الظروف من الجوع والقمع، لكن صفاء ورفاقه استمروا في الصمود، وأنشؤوا في الساحات المعارض الفنية والمتاحف التي تحتوي على مقتنيات الشهداء الذين ضحوا بأنْفَس ما لديهم من أرواحهم الزكية.

وتحتوي على رايات الحرية المُخضَّبة بدماء الشهداء، وأدلة من شتى الأنواع تُدين الحكومة.

وذات يوم اتصل صفاء عبر مواقع التواصل بصديقه الذي ذهب إلى منحة دراسية في الصين ليطمئن عن أحواله كالعادة، فأخبره زميله بأنه في الفندق ينتظر الفحص الطبي، فسأله عن السبب، فقال له لكي يمنحونه شهادة خلو من مرض وباء (فيروس كورونا)، الذي انتشر كانتشار النار في الهشيم، وأخبره بأنه محجور

في الفندق رغم أن نتيجة فحصه أثبتت خلوه من المرض، وذلك بسبب إصابة صديقه الباكستاني (بالفيروس)، وبيَّن له أن الجميع في الصين يرتدون الكمامات خوفًا منه!

فردَّ عليه صفاء بأنهم في ساحات الاعتصام يرتدون أيضًا الكمامات، مؤكدًا له بأن عام ٢٠٢٠ يمكن تسميته عام (الكمامات).

سيطرت الصين على الوباء في (وهان) وغيرها من المدن، لكن الحكومة العراقية لا تزال بلا رئيس للوزراء، ولا تزال قابعةً في مشكلاتها، ولم تصمد أمام رجال ساحة التحرير واعتصاماتهم التي غيَّرت الخارطة وسيسجلها التاريخ.

وما زالت الحكومة الفاسدة مستمرةً في الاغتيالات والاختطافات والقمع، ولا سيَّما ميلشياتها المجرمة التي تأخذ التعليمات من الجارة الخبيثة، عن طريق سيِّدهم الذي يدَّعي التديُّن ويرتدي عباءة الإيمان وعمامة السوء التي يسكن تحتها كثيرٌ من الأقنعة والشياطين، إذ كان في كل يوم ينفذ أنواع الإيذاء والتنكيل جميعها بالمتظاهرين في ساحة (الخلاني) تحت مُسميات مختلفة، مثل: (القبعات الزرقاء) وتارة (الصفراء) وأخرى (الزهرية).

وهكذا أضحت ساحات التظاهر تمتلئ كل يوم بعشراتٍ بل مئات القتلى، والجرحى، ولم يكن يوجد مَن هو بعيد عن الموت بما في ذلك المسعفين والمسعفات الذين طالتهم أيدي الغدر التي لم يسلم منها أحد، الأيدي الغادرة حيث لم يسلم أحد.

لكن رموز الاعتصام في الساحات كانوا ولا يزالون صامدين كنخل العراق وتاريخه، ومصرون على قضيتهم، شعارهم إما النصر أو الشهادة.

كان صفاء دائمًا يقف في الخط الأمامي لمواجهة الفساد، وهو ينشد أناشيد الثورة، وفي ليلة من تلك الليالي السوداء التي يعمها الدُّخان كانت سيارات (التُّكتك) في كل مكان، والتي سطَّر سائقوها أروع ملاحم التاريخ في كل ساحات الشرف في بغداد، وبقية المحافظات حيث كانوا جاهزين وعلى أهبة الاستعداد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المصابين، الذين كان منهم مَن يحتضر ومنهم مَن ينتظر أجله، ولقد تنوعت أماكن إصاباتهم بين الرأس والصدر.

كانوا يسعون بين إسعاف الأحياء ودفن الأموات، وعندما جاءوا لنقل رُفات الشهيد (هيثم العبيدي) وجدوا حمامة السلام على نعشه، كأن روحه الطاهرة تنتظر عودة الوطن الحر.

ومثله كثير من الشباب الذين ودَّعوا الحياة مبتسمين وأهلهم مكلومين مفجوعين، حتى إن أحد الشباب مات في سنٍّ لم تتجاوز العشرين، وقال قبل وفاته: «قولوا لأمي لا تزعل، فلقد ذهبت للشهادة في ساحة التحرير وقد نلتها».

وآخر أصيب في رأسه فقال لصديقه:

- أحس اتصوبت؟

فردَّ عليه: نعم.

ثم ما لبث أن سقط أرضًا! وشرع صديقه في البكاء عليه.

وفي بحثهم عن الشهداء، وجدوا في قميص أحدهم أربعة آلاف دينار عراقي، كان يريد أن يشتري بها قميصًا مكتوب عليه (أريد وطنًا)، لقد ذهب إلى ربه حيث أنقى الأوطان.

لقد سطَّر شباب الثورة ورموز الاعتصامات أروع صور البطولة في سباقهم نحو العيش في وطن نظيف لا يحكمه رموز الفساد، وهذا حق مشروع لأيِّ مواطن في أيِّ دولة في العالم.

كان شباب الثورة امتدادًا لثورة العشرين، فهم أحفادهم الذين لا يسكتون على الضيم والظلم، فهم العُظماء وهم الأجدر بالقيادة والمسؤولية، في زمن كاد فيه الجميع أن يفقد الأمل في نهضة العراق.

ولم تكن ضريبة تلك المظاهرات والاعتصامات سهلة، إذ واجه الأبطال كثيرًا من القمع وشتى أنواع التعذيب داخل العراق وخارجها، بل حتى الذين عادوا إلى العراق آملين بالثورة، قُبض عليهم في المطار، وبعد أيام تسلم أهاليهم جثثهم.

تلك هي أفعال حكومة الإرهاب، التي غرَّها دعم الجارة الشريرة لها، ولكن هيهات هيهات، كما قال الله في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾[١].

وعلى الإنسان أن يتذكر دائمًا أنه مخلوق ضعيف، فعندما جاء

---

١ الإنفطار: ٦-٧.

(فيروس كورونا) بعثر البشر وقلب العالم رأسًا على عقب، على الرغم من أنه لا يُرى إلا بالمجهر.

لقد كان عدل (كورونا) أفضل من الحكام الجائرين الظالمين لشعوبهم، فهم يعتبرون كل من يعارضهم مجرمًا عليهم عقوبته بأشد أنواع العقوبات، وحتى المُطبِّل لو خرج عن دوره ينهال عليه الإيذاء من كل مكان.

ويشكل أيضًا رجال الدين المنافقون خطورةً على المجتمع مثل (قدقد)، لأنهم وبسبب تصديق كثير من أفراد المجتمع رجالَ الدين جميعهم، ولكن ليس كل رجل دين هو شيخ حقيقي.

والله ﷻ ذكر في اثني عشر موضعًا من القرآن الأشخاص الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقال في آية:

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ ﴾[1]

وقال: ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ﴾[2]

---

١ البقرة: ٣٨.

٢ البقرة: ٦٢.

وقال: ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[١]

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾[٢]

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾[٣]

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾[٤]

وقال: ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[٥]

---

١ البقرة: ١١٢.

٢ البقرة: ٢٦٢.

٣ البقرة: ٢٧٤.

٤ البقرة: ٢٧٧.

٥ الأعراف: ٣٥.

وقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[١]

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[٢]...

وكل منا يتمنى أن يكون أحد هؤلاء لكي يحظى برضوان الله عز وجل.

وعلى البشرية أن يعودوا إلى ربهم، وهم يرون (فيروس كورونا) قد أرعب البشرية كافة، وعلى الرغم مما يمتلكون من قدرات، فقد سجن الجميع في داره، ليُشكل بذلك آية كونية تؤكد عظمة الله في الكون.

حاول العالم التضامُن ضد وباء وجائحة (كورونا)، إذ بادرت الصين -كونها هي أول دولة تغلبت عليه- بإرسال كوادر طبية ومواد طبية إلى غالبية الدول التي انتشر فيها الوباء والتي خسرت كثيرًا من الأرواح.

كانت الصين في قمة الذكاء حينما استغلت محنة (كورونا) وحولَتها إلى فرصة دبلوماسية عالية الأهمية، جعلت العالم ينظر إليها بانبهار شديد.

---

١ يونس: ٦٢.

٢ الأحقاف: ١٣.

وواصلت حكومة العراق أخطاءها واستهانت بـ(كورونا)، ولم تغلق حدودها مع جاراتها، خصوصًا جارة السوء التي جلب الزائرون منها الفيروس إلى النجف الأشرف.

كان شباب الاعتصامات ورموز المظاهرات واقفين بكل شموخ في الميادين، مؤكدين لحكومة الفساد أنه لا يصح إلا الصحيح، وسيعود عراق الحضارات، وسينهض الجد (حمرابي) من مرقده ويحقق القانون ويطبقه على الجميع بحد السيف، ويصحح أخطاء الحكومة التي انهار كل شيءٍ فيها، وجاء (كورونا) ليجدها خاليةً من مؤسسات صحية سليمة، وخاوية من مراكز بحثية قوية!

جاء (كورونا) ليجد الجهل قد تغلغل بعمق في العراق وعمَّ البلاد والعباد، وتراجع مستوى التعليم إلى أدنى المستويات وعادت الأمية، لتنطفئ بذلك شعلة الأمل عند كثيرين.

كان صفاء ورفقاؤه في الميدان يكفنون الشهداء بعلم العراق، حتى أم عباس بنت الناصرية البطلة التي ساندت الثوار وسطرت أجمل صور البطولة في (ساحة الحبوبي)، طالتها يد الغدر في منزلها على يد مجهولين قتلوها وأصابوا أحد أفراد أسرتها! وكان مما قالته في شِعرها دعمًا للثورة عليها رحمة الله: «وين ابن البلد يحقق لي الوعد وين».

كثير من مدن العراق ضحت بشهداء وشهيدات في المظاهرات التي كان يهدف كل من فيها إلى وطن حُر كريم، ومنهم عمر الشهيد الأول بالناصرية الذي لن ينساه إخوته، الذين أقسموا جميعًا على

تغيير الواقع السياسي والاجتماعي في العراق، طال الزمن أم قصر.

استرخى صفاء في الساحة ليخلد إلى نومة حلم فيها بالزهور تسقط من السماء، والشمس تشرق بضوء ساطع، وطير اليمامة يأتي من بعيد ويقف على رأسه، ثم شاهد أباه وأمه وسط غابات ومروج خضراء مرحبين به ينادیانه ويقولان له:

- صفاء، لك مكان في الجنة!

وهو وسط تلك المروج نهض من حُلمه مبتسمًا، فلمحه صديقه وسأله عن ابتسامته، فقال له:

- لقد حجز الله لي مكانًا في الجنة!

فسقطت دمعة من عيني صديقه، ثم واصل صفاء حديثه قائلًا:

- أرى أن العراق سوف يصلح حاله على يد الثوار، ويأتي الفجر وتشرق شمس الحرية قريبًا.

فقال له صديقه:

- حتمًا ستكون معنا يا صفاء، عندما نرى هرم الظالمين ينهار، ونحقق كل ما نحلم به.

رد عليه صفاء مبتسمًا:

- اليوم سوف أفوز بما هو أجمل ويتحقق حلمي الأزلي، سوف أفوز بالجنة كما بشرتني أمي في المنام.

وفي أحد الأيام، وبينما كانت الأحداث حُبلى بمختلف صور العنف، وقد تكالب كل من هب ودب من أحزاب الطغاة وعملاء الجارة الشريرة على سفك دماء الشهداء في ساحات الشرف، وجلبوا معهم ما هو أشد فتكًا من حكمهم الفاسد (فيروس كورونا) لكي يقضي على ما تبقى من شعب العراق الأبيّ.

ولا تزال زيارات المسؤولين في الجارة الشريرة متواصلة يبثون فيها سمومهم التي تقتل الشعب العراقي رويدًا رويدًا، وعلى الرغم من أنهم يدعون الدين وهو بريء منهم!

وكان صفاء كعادته يواصل النضال في الساحات لصدِّ عدوانهم على الشعب العراقي، حتى اخترقت جسمه الطاهر رصاصة جعلته يسقط مغشيًّا عليه! ليتم نقله من رفاق النضال وبسيارة (التُكتك) إلى المستشفى، الذي كان فيه الكوادر الطبية قد انقسموا إلى قسمين، فمنهم من استسلم لضغط الفاسدين، ومنهم من كان متضامنًا مع الثوار.

حاول الجميع إنقاذ حياة صفاء، لكن كان القدر أسرع منهم، إذ صعدت روحه نحو السماء راضية مرضية.

لقد رحل صفاء وسلَّم أمانة الوطن الغالي إلى أبطال الساحات رموز الحرية الذين حملوه إلى مثواه الأخير، ودفنوه بجانب قبر أمه.

وكانوا في طريقهم نحو المقبرة ينشدون باللهجة العراقية:

- لو أمي قالت ابني شو ما بين.. قولوا لها جوا التراب اتعين.. أتمنى أرجع بس أشمها.. يدفنون بيه وبالي يمها.. طشروا راسي ما

صحت آخ آخ آخ.. قولوا لها ترفع خشمها.. شلال من طحت شحلاتي أيخرمشن خدهن خواتي.. بجناحهن شالن غطا الوح الوح الوح.. حسبالهن حنطة الفخاتي.. أنا الشهيد الطاح لأجل التغيير.. سولي يا عالم قبر بالتحرير.. أنا البريء الماخذ أحلامي وياي زغير ولا كلفت المغيسل ماي.. شكد عندي وي غاز القنابل تذكار قبل المسيل مبجي عيني الإيجار.. ما لحكت ألبس حلقتي قناصهم خرب كشختي.. جيبوا لي قاط وغرفة أخشاب، أخشاب، أخشاب.. ليش الحد صاير غرفتي يا يمه.. تمنيت قبري يصير جامة.. مشتاق لصحابي النشاما قولوا لهم.. صاحبكم يقول يقول، يقول، يقول.. ما أرجع لهم بالسلامة بالسلامة.. شبسرعة خلص عمري ما عشت هواي.. زغير ولا كلفت المغيسل ماي.. شهيد التحرير كما كان يتمنى..

الخاتمة (ملخص)

تتحدث هذه الرواية عن قصة ثائر آمن بالله والوطن، وكان يرى الشهادة في سبيل الوطن خلودًا وموتًا أكثر من رائع، وليس مصيرًا سيئًا.

يحمل نفسًا ترى السعادة الحقيقية في إسعاد الناس وإرشادهم وإدخال السرور عليهم والذود عنهم.

ويرى الثائر المتمرد أن التضحية في سبيل الحرية مهما بلغت تهون، لأنه أدرك أن الدولة تُدار لحساب نخبة، وليس لحساب أمة.

فثار لتحقيق تلك العدالة التي أضحت حُلمًا بعيد المنال.

وأدرك أن بلده منقسم إلى شرائح، كل شريحة وكتلة ليس لها إلا خدمة مصالحها، أما الشعب فهو في وادٍ مُظلم من الفقر والجهل والبطالة.

لقد كان هدف البطل صفاء تحقيق الإنسانية وانتزاع الوطن من التابعين للدوائر الاستعمارية، ولقد سانده في ذلك الشرفاء

جميعهم من أبناء العراق، من خلال وقوفهم بكل شموخ على الساحات التي بحثوا فيها عن حضن الوطن لا حضن الأحزاب والجماعات.

لقد بحثوا عن تحرير الوطن، واسترداد أمواله من جيوب السراق والفاسدين، ولذلك فقد أدرك صفاء والمناضلون من الأشراف أن هذه المهمة تستحق بذل كل شيء، بما في ذلك الأرواح من أجل تضميد جراح الوطن الغالي وتهيئته نظيفًا للأجيال القادمة.

سندس الشاوي